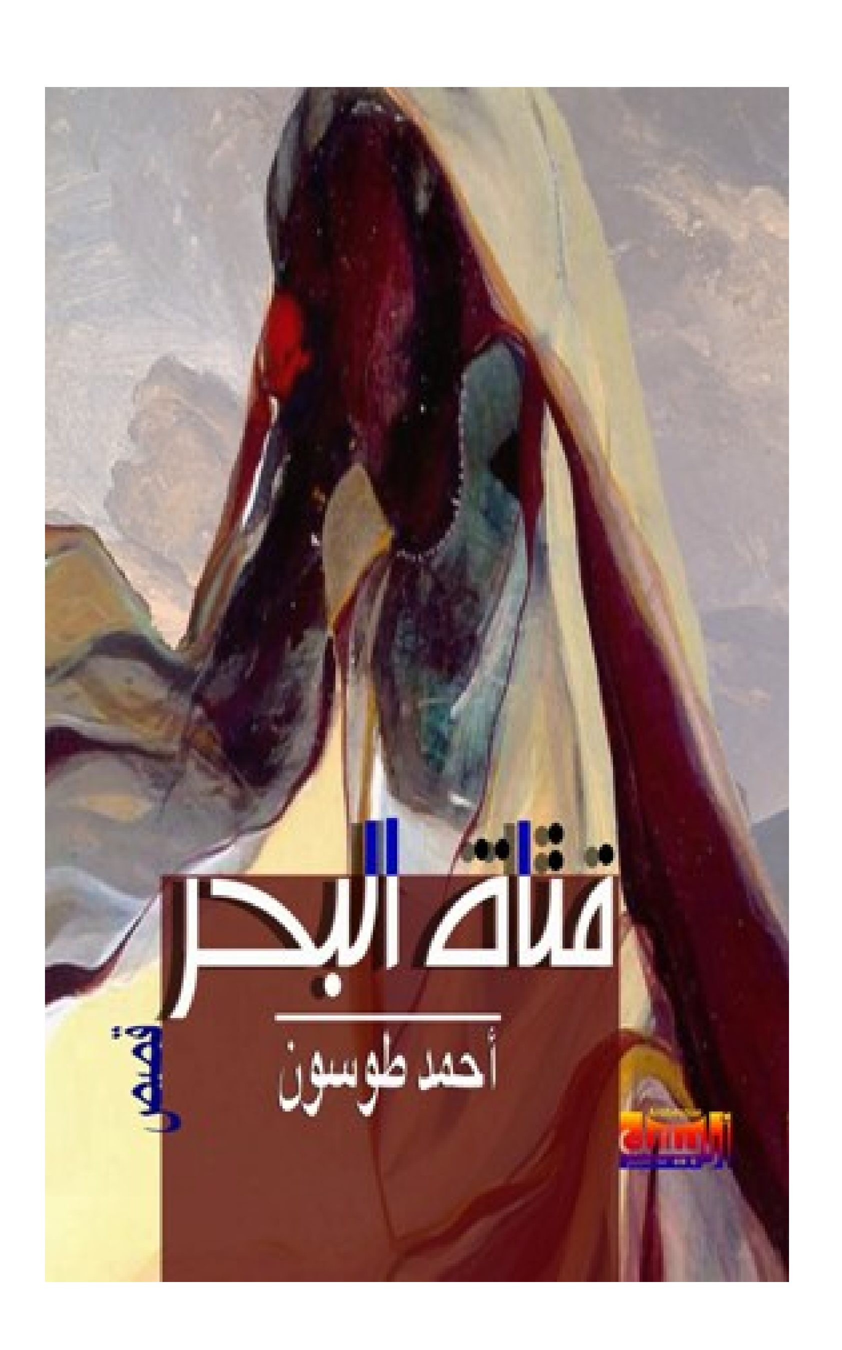

فتاة البحر
أحمد طوسون
قصص



قصص

◘ فتاة البحر

◘ أحمد طوسون

◘ الناشر: دار أرابيسك للترجمة والنشر والتوزيع

◘ الإخراج الداخلي: أرابيسك

◘ تصميم الغلاف: طاهر البربري

◘ الطبعة الأولى: 2011

◘ جميع حقوق الطبع محفوظة

◘ 106 صفحة، مقاس 13×21

◘ رقم الإيداع: 2539/ 2011

2، شارع علي عفت، محطة حسن محمد، فيصل الجيزة، مصر.

2, Ali Effat St. Hassn Muhammed, Faysal, Giza, Egypt

www.arabesque.netarabesque.publishers@gmail.com

أحمد طوسون

فتاة البحر

قصص



2011



إهداء:

'إلى أزهار البنسيان التي لم تتوقف عن التساقط برغم اختلاف الفصول.'

قربانة

عند شجرة اللبخ الكبيرة بمحطة القطار، كنت أجمع زهرات ذقن الباشا عندما يهزها هواء مارس الدفيء فتتساقط ويفوح عطرها بالمكان. أضعها في جيب بنطالي الصغير، وأحملها إلى أمي..

تخلطها بالماء وترشها بأركان البيت، فيطل الربيع بوجهه الضحوك من نوافذنا المفتوحة على مصاريعها.

حينها رأيتها تهبط من القطار الذي أطلق صفارة طويلة أفزعت العصافير فحلقت وطارت بعيدا وحط القطار بمحطتنا.

كانت بين زميلاتها بـ"فيونكتها" الحمراء وقميصها الأبيض ومريلتها الزرقاء، تضم كتبها إلى صدرها وتفرش ضحكتها على رصيف المحطة.

لحظتها شعرت بقبضة في قلبي وانغرست بذرة لكائن مجهول بصدري وذابت زهرات ذقن الباشا بين أصابعي، وسقطت على الأرض فجرفتها نسمة ربيعية بعيدا واختلطت بالتراب الناعم الذي غطى الرصيف.

أغمضت عينيّ لأحتفظ بصورتها لأطول فترة ممكنة، حتى علت صفارة القطار من جديد وارتج رصيف المحطة وصرت وحيدا بين جدران المحطة العجوز.



عندما أغمضت الشمس جفنيها وفرش الليل ستارته، جاءت إلى سريري..

رفعت غطائي وجذبتني من يديّ، فشعرتُ بسخونة فيهما وفتحت عينيّ على ابتسامة مدهشة..

حرّكتُ لساني بسؤال وجِل وقلت:

أنتِ....؟

منعتني الكلام حين وضعت إبهامها فوق شفتيّ المرتعشتين..

رفعت يديها عاليا فظهرت لها أجنحة بيضاء صغيرة كأجنحة الملائكة، وطارت بي عاليا بين الغمامات البيض.

ظللنا نتأرجح ونلامس السماء بأكفنا الصغيرة ونلونها بألوان قوس قزح، حتى أيقظتني أمي وقالت:

انهضْ

ستتأخر على المدرسة!

في الطريق إلى المدرسة شاهدت البنات بقمصانهن البيض ومرايلهن الزرقاء فدق قلبي بعنف وفاحت حولي رائحة زهرات ذقن الباشا.

لم أعرف لِمَ قادتني قدماي إلى رصيف المحطة..

صفر القطار صفارة طويلة موجعة ورحل بعيدا، وخلا رصيف المحطة من المرايل الزرقاء دون أن أجدها..

سحبت قدمي وجرجرتهما إلى طريق المدرسة، لكن العم رشيدي أغلق الباب في وجهي ولم يفتح.

❖❖❖

أتى قطار ثم عاد..

وأتى قطار آخر فارتجف رصيف المحطة وزقزق كروان وحط فوق شجرة اللبخ وهز أوراقها فسقطت زهرة ذقن الباشا فوق وجهي.

رأيتها تهبط مع صويحباتها، فرش البستاني البذرة التي انغرست في قلبي ورواها بماء الحياة.

قادني الحنين، فسرت خلفهن، وظللت أتبعهن عن بعد حتى افترقنَ عند ميدان البلدة وودعن بعضهن بالضحكات، وسلكت هي الطريق إلى شارع الكنيسة.

تابعت خطواتها وهي تلمس الأرض بكل خفة.. أقلص الخطوات بيني وبينها، حتى دنوت فشعرت بحرارة القرب.

همست في أذنها:

. أنتِ جميلة جدا

استدارات ناحيتي..

وقبل أن تكمل عيناي الذاهلتان من وهج جمالها دورانهما حول محيطها شعرت باحمرار وجهي والحمى التي تستعر في جسدي، وقبضة في قلبي.

تفحصتني من أسفل إلى أعلى، وقالت:

. أنتَ ولد صغير..

وقليل الأدب.

شعرتُ بعرق غزير يغطي جسدي، وبقلبي يدق بعنف وبقدمي ترتعشان وتتخبطان في بعضهما.. فلم أنبس بحرف.

تركتني وواصلت طريقها على وقع خطواتها التي كانت تدهس قلبي، حتى وصلت إلى باب الكنيسة ودخلت إلى هناك.

❖❖❖

حين يشدني الحنين أغمض عيني وأستعيد صورتها وصوتها حتى أكاد ألمسهما في انتظار أن يأتي قطارها.

أتبعها عن بعد وهي تسير بين صويحباتها.. تغافلهن وتلتفت خلفها بين برهة وأخرى.

تراني فتبتسم وتمد خطواتها.

عند شارع الكنيسة صارت وحيدة.

تباطأت خطواتها، فأبطأت خطواتي لتظل المسافة بيننا كما هي.

عندما توقفت في منتصف الشارع، توقفتُ.

لم أعرف ماذا أفعل، هل أستدير وأعود إلى بيتي أم أقف في مكاني كتمثال تجمد من الصقيع؟!

رأيتها تشير بكفها ناحيتي بما يعني تعال..

التفتُّ حولي فلم أجد أحداً غيري.. أسرعت إليها ووقفت بين يديها وقلت:

. أنااااااااااا؟!

تلك المرة لم تكن ابتسامتها معها.. كانت غاضبة كطفلة كُسِّرَت لعبتها للتو وهي تقول:

. أنت عاوز إيه؟

لم أعرف بِمَ أجيب، وماذا أريد منها، لكن وجدتني أقول:

. نتجوز..

ضحكت قبل أن تستعيد صرامتها ويتحول صوتها إلى عصا تلسع وهي تقول:

. أنت عبيط؟

لا تمشِ خلفي بعد اليوم.

ملت بنظراتي إلى الأرض وشعرت بجفاف حلقي ولم أستطع أن أقول لها شيئا.

حين أيقنَتْ أنني لن أتكلم تركتني ورحلت بخطوات مسرعة حتى دخلت من باب الكنيسة.

بينما عدت إلى بيتي أرتجف من الحمى التي دهمتني.. وأصبح صدى صوتها الذي كان يملأ قلبي بالفرح يلسعه بالألم، وأحسست بالدموع تحتبس في عيني فلم أستطع منعها.. وقلت في نفسي: لن أتبعها بعد اليوم!

❖❖❖

ليومين لم أبرح فراشي بعد أن كومت أمي الأغطية فوقي، ولم أذهب إلى المدرسة.

في اليوم الثالث ارتديت أكثر من بلوفر وذهبت إليها.

في الفسحة أصحابي كانوا يلعبون بحوش المدرسة حين سمعتهم يقولون إن عامر يسكن بشارع الكنيسة.

من حينها صار صديقي.

قلت له: نذاكر معا.. يوما عندك، ويوما عندي، وأصررت أن أصحبه إلى بيته بعد المدرسة.

من خلف خصاص النافذة ظللت أتطلع إلى الشارع وأترقب وصولها.

تسحب عامر وجلس بجانبي وقال:

. أفتح الشباك؟

أومأت برأسي " لا"، وأشرت له أن يصمت وينظر معي من بين خصاص النافذة، حتى عبرت من أمامنا.

ضحك عامر وقال:

. يا ابني دي في ثانوي

هتبصلك أنت؟!

خفق قلبي وانقبض بعنف.. التفتُّ إليه وقلت:

. أنت تعرفها؟

. طبعا..!!

. طيب اسمها إيه؟

لكنه رفض أن ينطق بحرف قبل أن أعطيه علبة الألوان الفلومستر التي اشتراها أبي لي بعد إلحاح.

ترددت لبرهة، ثم اشترطت عليه أن يقول كل ما عنده أولا.

قال إن اسمها زهرة..

ظللت أردد اسمها بين شفتي دون أن يسمعني عامر، ولا أعرف لِم اعتقدت أن من الطبيعي أن يكون اسمها زهرة!

أبوها عم بولس خادم الكنيسة.

وأمها تصنع القرابين.

. وأين تسكن؟

جذب علبة الألوان من بين يدي، وقال:

. في الكنيسة.

❖❖❖

تكررت زيارتي لعامر حتى فاجأتنا أمه ونحن ننظر من بين خصاص النافذة على الشارع.. لسعتنا بعصاها القاسية وقالت:

. يا عديمي الأدب، بتعاكسوا البنات من ورا الشباك!

من بعدها لم أعد أراها إلا حين عودتها من المدرسة، أتوارى خلف شجرة اللبخ وألمحها تهبط من القطار فيرتجف قلبي ويرشح بالحنين.

أيام مرت بعد إجازة آخر العام ولم أرها.

فكرت أن أزور عامر لكن عصا والدته جعلتني أطرد الفكرة عن رأسي وأبحث عن أخرى.

قررت أن أسير في شارع الكنيسة وحولها ربما قابلتها أو رأيتها صدفة.

لا أعرف كيف قادتني قدماي إلى هناك وعبرتا من باب الكنيسة.. سرت مخدرا بلا وعي حتى أفقت على صوت أحدهم يشير ناحيتي ويصيح:

. ولد مسلم غريب

امسكوه قبل أن يسرق شيئا!

جريت بسرعة خوفا أن يمسكوا بي وتراني زهرة.

أيام طويلة مرت وأنا أسير كعادتي حول الكنيسة دون أن أراها.

حين رآني عامر قال:

. أنت مجنون

هل تحبها بجد؟!

ملت برأسي ونظرت إلى الأرض ولم أتكلم.

لكنه عاد وضحك قائلا:

. من تظن نفسك

بنت في ثانوي..

ومسيحية..

تفكر فيك؟!

هززت رأسي وقلت:

. بالطبع لا..

سكت لحظة أخذت فيها نفسا شجيا، وقلت:

. لكنني لم أرها منذ أخذنا الإجازة!

عامر قال:
. طبعا يا ابني
علشان بتساعد أمها في عمل القرابين.
❖❖❖
احتفظت بالكرة الجديدة التي اشتراها أبي هدية لنجاحي كما هي ولم أمسسها.
وحين زارني عامر أخرجتها من مخبئها وقلت:
. تشبه الكرة التي يلعبون بها في الساحة الشعبية
أمسك بها وقال:
. تمنيت لو كنا نمتلك واحدة
هيا لنلعب بها.
شدني من يدي لكنني تمنعت وقلت:
. أنا لا أحب لعب الكرة..
جذبت الكرة من بين يديه وحضنتها بين صدري وجلست على مقعدي.
عامر بدا غاضبا حين قال:
. لكنك كنت تلعب معنا بالمدرسة!
صمت لحظة ثم قلت:
. لم أعد أحبها!
مددت يدي بالكرة وناولتها له وقلت:
. يمكنك أن تأخذها..
. صحيح؟!!
قال عامر بلهفة واندهاش..
اقتربت منه وقلت:
. إن أردت..

طبعا..

إذا استطعت أن تأتيني بقربان من التي تصنعها زهرة!

❖❖❖

عامر غاب لأيام، ثم عاد متهللا، وقال بثقة:

. أين الكرة؟!

هرعت إليه، وقلت:

. هل فعلتها؟

. طبعا..

أين الكرة؟

قلت:

. هات القربان أولا

واخرج وانتظرني عند أول الشارع حتى لا يلحظ أبي شيئا.

قبلت القربان ووضعته بين ملابسي وأغلقت ضلفة دولابي جيدا.. سحبت الكرة من تحت السرير وخرجت دون أن يشعر بي أحد، وعدت بدونها.

كل يوم أفتح دولابي وأُخرج القربان وأضعه أمامي وأتخيل زهرة وهي تصنعه بيديها، فيهتز الشجر الذي نبت بقلبي وأسمع حفيف أوراقه.

مرت أيام..

صحوت على صوت أمي تصيح وتسأل بغضب عمن وضع القربان في دولابي حتى تعفن.. أزاحته وألقته على الأرض، ثم كنسته.

بينما كان شيء صغير يتحطم في قلبي..

تعريشة سندس

◘◘◘

التقينا عند تعريشة سندس.

افترش كلٌّ منا صفحة من جريدة على الرصيف وجلس فوقها، (كنت أشتريتها بحثا عن باب الوظائف الخالية ولم أجده).. سمعنا سندس تنادي على عامل المقهى ليبحث لنا عن مقعدين فارغين من بين مقاعدها التي تعد على أصابع اليد الواحدة، لكن صاحبي أشار بإصبعه إليها بما يعني أنه لا لزوم لهما وأوصى بكوبين من الشاي الأسود.

أخرج لفافة من جيب صدريته ووضع بها بعض التبغ وقطعة لا تكاد ترى من الحشيش ومد يده بها ناحيتي.

شكرته معتذرا وقلت له إنني لا أدخن.

بدا من انقباض خطوط جبهته والألفاظ التي تفوه بها دون أن أميز حروفها وكأن إجابتي لم تعجبه، ثم انصرف عني إلى سيجارته ليتأكد من لفها جيدا قبل إشعالها.

أخذ نفسا عميقا من دخان لفافته واحتفظ به لثوان قبل أن يطرده خارجا وتخيم حول رأسه دوائر الدخان الأزرق..

تنهد وهو ينظر إلى وهج سيجارته وقال:

. رأيتك عنده

وأشار إلى حيث أتينا من الشارع الذي يمتد بلا انتهاء.. ابتسمتُ وقلت:

. وأنا أيضا رأيتك

. وماذا طلب منك؟

. ألفي دولار

سحب نفسا جديدا، وقال باستهزاء:

. يبدو أن التسعيرة واحدة!

حينها أحضر العامل كوبين من الشاي وضعهما إلى جوارنا على الرصيف وانصرف.

بدا وكأننا تآلفنا بسرعة على طريقة الغرباء عندما يجمعهم منفى واحد ويلذ لهم التخفف مما يحمل القلب من أوجاع، رغم أننا لم نكن غادرنا بلدتنا بعد!

قال إنه لا حل لنا هنا.

الحل إن وجد لن يكون إلا هناك عند الشاطئ الآخر للبحر، حيث تستطيع الأفكار والأحلام أن تهبط من سماواتها وترتدي الأحذية وتسير بين الناس..

في بلادنا اللصوص يسرقون الأحلام ويلقون الأفكار بالحجارة وينعتونها بالكفر..

لن نجد فرصتنا إلا هناك..

الكبار عندنا يختزنون الفرص في دولاب نزواتهم ليبيعوها في مزاد أو يهبوها منحة لذويهم ومعارفهم، أو ليشترونا ببخس الثمن.

أحيانا يفكر الواحد منا لو كان حيوانا لصار له ثمن أفضل!

مرت السنوات واحدة بعد أخرى وتسرب العمر كالماء من بين الأصابع دون أن نحقق شيئا.. الشاطئ الآخر شاطئ الفرص المحلقة بأجنحتها..

ولن أتخلى عن فرصتي للإمساك بالحلم!.

هززت رأسي بما يعني الموافقة على ما يقوله وقلت:

. ولكن.. من أين سنأتي بالمال؟

. نستدينه.. نسرقه.. نطبعه

. لا يهم

. المهم أن نصل إلى هناك.

قال ثم أطرق برأسه إلى الأرض.

❖❖❖

لم يسألني عن اسمي أو عنواني ولم أسأله عن اسمه أو عنوانه وإن اعتقدت أنه من أهل المدينة حين لم يرافقني إلى موقف الحافلات!

علا بوق سيارة بالقرب مني وغطاني غبارها قبل أن يتقدم شاب نحيل شديد الاصفرار ويزيحني من أمامها لأسقط على الأرض، بينما سائقها توقف للحظات يحدق في عينيّ ويسبني بسيل من الشتائم.

تجمع حولي آخرون وأشاروا له ليكمل طريقه.. مد أحدهم يده ليساعدني على النهوض وقال:

. هل أصابك سوء؟

أومأت برأسي:

. لا

لم يعقب بكلمة وتركني في لحظة وحيدا بين الزحام.. مسحت الغبار عن وجهي وسرت في طريقي إلى موقف السيارات المتجهة إلى بلدتنا.

ركبت السيارة في انتظار اكتمال عدد ركابها وعدت مع أكوام الظلام التي تكدست بمدخل البلدة.

عند الباب كانت زوجتي بانتظاري، مسحتْ كفيها من بقايا سواد وصابون في جلبابها وقالت بلهفة:

. حمدا لله على السلامة

حاولت تحريك شفتي فلم تستجب من التعب.. دلفت من الصالة إلى حجرتنا في صمت، أزحت صغيري النائم مكاني على السرير إلى المنتصف ورقدت على ظهري إلى جواره متأملا سقف الحجرة الذي بدا أكثر قربا عما قبل.

عادت زوجتي بعد أن غسلت يديها ومسحتهما بمنشفة قديمة وأزاحت قدميّ الممدودتين على أخرهما جانبا.

. مدت كفها ودلكتهما فأصابتني قشعريرة، قالت بحنو:

. عملت أيه؟

أخذت نفسا عميقا وقلت:

. طلب ألفين دولار!

خبطت بكفها على صدرها وقالت:

. يا لهوي ي ي

عاوز الفلوس بالدولار

هنجيب منين؟!!

نظرت عن يميني إلى طفلي النائم بهدوء ورحلة العلاج الطويلة التي تنتظره!

شردت برأسي إلى الشركة التي باعتها الحكومة، وصاحبها الذي قال إنه لا يحتاجنا.. عشرات الأبواب التي طرقتها بحثا عن عمل، ثم عدت بنظراتي إلى وميض الأساور في يديها، وقلت:

. سأتصرف!



في الصباح لم أسمع رنين أساورها، وضعتهم في كيس وقالت:

. توكل على الله

- عندما تسافر ستأتي بأفضل منهم..

انزلقت عبر فرجة الباب وتلمست الطريق إلى بيت أمي القريب من الخلاء.. مع كل هبة ريح تتساقط أوراق الشجر كرشح الحنين.

كانت ترشق الماء على النبات والتراب والحجر، قبلت يديها وشربت شايها الأسود بينما كانت تمط كلماتها بصعوبة، غمغمت وقالت:

- لم يبق في العمر بقية يا ولدي

- ....

خبطت كفيها ببعضهما وقالت:

- رب هنا، رب هناك..

استندت على عكازها ونهضت إلى جوف الدار، ثم عادت بلفة صغيرة وضعتها في يدي وقالت:

- كنت أحتفظ بهم ثمنا لكفني..

- خذهم

- إن حانت ساعتي، أهل الخير كثيرون

ملت على يديها لأقبلهما، فسحبتهما وشدتني إلى حضنها ثم أزاحتني إلى عتبة الباب ودارت بوجهها بعيدا وهي تقول:

- اجعل زوجتك تسأل عني

- لا أريد أن أموت وأتعفن دون أن يشعر بي أحد!

خرجت من الباب بينما انغرس بعض الرجال أمام الدور يدخنون النرجيلة وعلا صوت حفيف الأغصان في الأعالي.

ركبت السيارة وانحدرت إلى سوق المدينة المغطى، غصت في زحام الصاغة وعددت الثمن.. جمعته على لفة أمي وذهبت إلى سمسار التهجير السري.

وجدته هناك يحمل بين يديه جواز السفر وكيسا يشبه كيس نقودي، نظر كلٌّ منا إلى الآخر وابتسم بصعوبة.

❖❖❖

خرجنا من عند السمسار ثقيلين نجر خطواتنا ككهلين..

مرة أخرى توقف بنا عند تعريشة سندس، افترشنا الرصيف وأتى النادل بكوبين من الشاي وانصرف إلى زبائنه.

سألته عن اسمه، لكنه لم يرد.

تطلعت إليه بعد أن استند بوجهه على قبضة يده وظل يحملق في سندس، لمحت نمشا بنيا داكنا يغطي وجهه.

أشرت ناحيتها وقلت:

. هل تعرفها؟

ظل صامتا، كأنه لم يسمعني.

مددت يدي وهززته برفق، فالتفت ناحيتي، سألته:

. أنت متزوج؟

مط شفتيه وسحب نفسا عميقا وظن نفسه عالقا بين الأرض والسماء، يتأرجح ولا تستطيع قدماه أن تحملاه، هرب بنظراته بعيدا يتابع طفلا يركب دراجته وأمه الشابة تتبعه بنظراتها.

ضحك وقال:

. إن كان لك زوجة وابن هل ستفكر في السفر؟

قلت:

. أنا عندي زوجة وابن!

فكر قليلا، وقال:

. ستسافر وتتركهما؟!

. ...

. معك حق

على الأقل تضمن لهما حياة كريمة بعيدا عن هذه البلاد!

صمت للحظات ثم سألني:

. وكيف دبرت النقود؟

. قل لي أنت

. هل سرقتها أم طبعتها أم استدنتها؟

رفع قميصه وكشف عن موضع جرح عميق بجانب ظهره، وقال بسخرية:

ـ يستطيع الإنسان دائما أن يعيش بكلية واحدة، ليأمن توفير النقود حين يحتاجها!

هززت رأسي مواسيا وقلت:

. أنا أيضا ابني مريض، ويعيش بكلية واحدة!



كدت أتراجع حين صحبنا السمسار إلى مخزن بالميناء وأشار إلى الصندوق، وقال:

. ادخلْ.

لكنه اقترب مني وقال:

. لا تتردد

. لن يكون الوضع أسوأ مما نعيشه في بلادنا، ساعات ونمر من المعبر وتتغير حياتنا أو نرتاح منها!

أمَّن السمسار على كلامه وقال:

. بمجرد أن تتحرك المركب وتغادرون الميناء، سيأتي أحدهم ويخرجكم من الصناديق.

سبقني وقفز إلى داخل أحد الصناديق، فقام السمسار بإغلاقه جيدا، وتسابق الآخرون للحاق كلّ بصندوقه.

تعجبت أنني لم أعرف عنه الكثير، حتى اسمه لم أعرفه إلا عندما صحبنا السمسار ونادى علينا ليعطي كلاً منا جواز سفره.

قال إنه لا قيمة لها، احتفظ بها ليتأكد من عدد المسافرين، عندما تصلون إلى هناك تدبروا أموركم بعيدا عن الشرطة.

سألته عن السبب الذي جعله لا يسألني عن اسمي أو يخبرني باسمه؟

قال:

. إذا وصلنا إلى هناك سنتعارف أكثر..

أما إذا فقد أحدنا الآخر الآن..

فلن يوجعه الفراق!

مر وقت حتى علا صوت الضجة، وهزتني رجفة شديدة.. توالى الاصطدام بجنبات الصندوق، وتعددت الخبطات محدثة ضجة مهولة وألما أكبر، أشبه بماكينة عصر عملاقة، تدخل البشر من ناحية لتخرجهم بقايا آدمية من الجهة الأخرى، وتنقلهم من عالم إلى آخر.

بعدها ساد صمت وهدأت الحركة.

حاولت زحزحة أعضائي التي أنهكها التعب وأوجعها وخز الإبر، منذ حملتنا الرافعة من فوق رصيف الميناء وألقت بنا فوق ظهر المركب.

كنت أريد الصراخ ليخرجني أحدهم من هنا، لكن تكبلني تحذيرات السمسار أن يحدث أحدنا صوتا فينكشف أمرنا قبل أن نغادر الميناء.

تغلبت على وجعي وقهرت رغبتي في الصراخ وملت برأسي إلى أسفل لأبتعد قدر المستطاع عن سقف الصندوق ووضعته

بين قدمي اللتين ضممتهما بقوة إلى صدري، أشبه بالوضع الجنيني.

فتحت عينيّ اللتين أغمضتهما منذ ولجت إلى الصندوق تنفيذا لتعليمات السمسار حتى لا يصيبنا الدوار، فلم أجد فارقا..

أكوام من العتمة الرابضة والوحشة المشتعلة.

. طمأنت نفسي، وقلت:

. القاع دائما مظلم.



بين الخوف والوحشة لا أعرف كيف دهمني النوم..

لم أعرف كم مر من الوقت، كنت آخذ أنفاسي بصعوبة وجسدي تغشاه السخونة ويرتجف دون أن أستطيع التحكم فيه.

شعرت بحركة من حولي وأصوات استغاثات.

دفعتُ سقف الصندوق بما استطعت من قوة وغصت في زحام الظلام والأجساد والأشياء التي تصطدم وتتراكم فوق جسدي، بينما الأصوات حولي تصرخ بعشوائية، لم أستطع تفسيرها إلا حين قال أحدهم إن المركب تغرق.

دوى صوت انفجار عظيم وتطايرت بقايا أخشاب وزجاج مع تلاطم الموج من حولنا.

تعلقت بخشبة قذفها الموج ناحيتي، بينما آخر حاول جذبها نحوه حتى استقر إلى جانبي، نظرت إليه فوجدته هو..

ورأيت عينيه تلمعان بالرعب.

قال:

. سنموت؟

كنت أحس بأن روحي تخرج من جسدي ببطء..

نظرت إلى السماء فرأيت القمر الساطع بفضته الواسعة على البحر، وتخيلت صغيري يرقد إلى حضن أمه مبتسما في سذاجة، ينتظر عودتي بكيس علاج الآلام..

سحبت نفسا عميقا وقلتُ:

.لابد أن أحدا سيأتي لإنقاذنا..

تلك الرائحة!*

◻◻◻

أول من علقت الرائحة بأنفه كانت تحية.

تسكن حجرة صغيرة بسطح العمارة.. أخذت مفتاحها من الأستاذ رمضان ودعت له بالستر في الدنيا والآخرة.

زوجته كانت تستخدمها في تربية الطيور..

عادة لازمتها منذ نشأت في قريتها البعيدة!.

لم تتركها بعد زواجها من رمضان أفندي، أو عندما تركت سكنى البيوت الفسيحة بعد التحاق زوجها بوظيفة في البنك وانتقالهما معا إلى المدينة، وسكنت بشقة في العمائر الجديدة التي تتشابه وتجعل من ساكنيها لونا واحدا بلا فوارق.

أول ما سألت عنه، أين ستضع دجاجاتها؟

بنت "عشة" من الطين والتبن فوق سطح العمارة -حسدها عليها سكان العمارة- ووضعتهم فيها.

عشش كثيرة بُنيت إلى جوار عشتها، مرة بالطين، وأخرى بخشب التبن وجريد النخيل، وأحيانا بألواح من الصفيح الصدأ، وثالثة بنيت بأنصاف قوالب الطوب الأحمر المتبقية من مخلفات البناء.

كلها تهاوت وبقيت عشة زوجة الأستاذ رمضان صامدة في وجه الزمن!

كأنها صمدت لأجل تحية..

---

* العنوان مأخوذ عن رواية (تلك الرائحة) لصنع الله ابراهيم.

تعرف عليها الأستاذ رمضان حين رآها تمسح أرضية البنك وواجهته.

حينها رأى عينيها تتكتمان على شيء دفين من الحزن، ولم يجد فيهما طلة المترددات على الخدمة في البيوت.

بعد انتهاء الدوام، طلب منها أن تمر عليه لتؤنس وحدة زوجته وتساعدها في تنظيف البيت وأعمال المطبخ.

منذ تزوجت ابنته الوحيدة والعبء تضاعف على زوجته.. صحتها لم تعد كما كانت في الماضي السحيق.

حين زارته بالشقة فتحت زوجته معها تحقيقا طويلا، لم يكن الأستاذ رمضان يعرف له مبررا.

ليس عندهما ما يخشيان عليه منها.. ستقضي عندهما ساعات وتنصرف إلى حال سبيلها.

تحية قالت إن أمها كانت تعمل غازية في شبابها، لكنها لم تنس كارها حتى بعد أن كبرت وولى شبابها وضاعت أنوثتها وترهلت.

ليس ذنبها أنها ولدت لأم تعمل غازية، ولأب لا تعلم عنه شيئا.. حتى اسمه الذي يلاصق اسمها في بطاقة الهوية لا تثق في صحته!

الذنب ليس ذنبها.

تريد أن تعيش مثل خلق الله، تأكل وتشرب من عرق جبينها، وآخر الليل تضمها جدران أربعة ويسترها باب لا أحد غيرها يمتلك مفتاحه.

الخدمة في البيوت ليست عيبا، العيب أن تبيع جسمها لكل عابر، أو تأكل بثدييها!

لمحت زوجة الأستاذ رمضان دمعة تحتبس في عيني زوجها، ثم رأته يخرج ورقة بعشرة جنيهات ويعطيها لتحية.

كتمت غيظها حتى ذهبت تحية إلى المطبخ.. عنفته وقالت:

ستتعود على القرش ولن نسد على طلباتها

لا تخدعك نظرات المسكنة!

اعتادت أن تزورهم في أيام الجمع، تتجول في الشقة بخفة، تكنس وتمسح وتغسل الملابس التي تكدست بالحمام وتكويها دون تبرم أو شكوى.

حين يعود الأستاذ رمضان من صلاة الجمعة تكون انتهت من تنظيف الشقة، تأخذ الخضار والطلبات التي أحضرها معه وتذهب إلى المطبخ لتحضير الغداء.

آخر النهار تصعد إلى عشة الطيور تنظفها هي الأخرى..

تفتح باب قن الدجاج، تنظف القن وتفرش تبن الأرز على الأرض وترشه بالمياه ثم تضع الحبوب والماء للدجاجات وتهبط لتبدل ثيابها وتجلس إلى جوار الأستاذ رمضان وزوجته وهما يتبادلان حديثا أشبه بالركام، لا غرض منه إلا قتل الوقت!.

تشاركهما بعضا منه.. تظل تمدح نوعية الأثاث وخشبه الزان والفرش الذي لا يوجد مثيله هذه الأيام، وغرف الشقة المربعة التي يسهل توظيف أثاثها.

ثم تحمل كيس ملابسها وتتركهما وترحل.

تغيب وتعود..

مرضت زوجة الأستاذ رمضان ونصحها الأطباء ألا تغادر سريرها، فأصبحت تتردد عليهم كل يوم.

بعد أن تنظف الشقة وتناول زوجته العلاج، تعد له طعامه، ثم تصعد إلي سطح العمارة لتراعي الدجاجات.

في أحد الأيام بدت حزينة.. بقايا لدموع ساخنة جفت على خديها وتركت حفرا غائرة مكانها.

حين سألها الأستاذ رمضان عما بها.. نكست رأسها ونظرت إلى الأرض ولم تتكلم، جرجرت خطواتها بتثاقل وانسحبت من أمامه.

سمعها تتمتم في المطبخ وتحدث نفسها بكلمات لم يستطع أن يستبينها.

وضع الجريدة التي كان يتصفحها وأشعل سيجارة وقال لنفسه: "كيف تحافظ المرأة علي نفسها بين غابة من الذئاب".

بعدها فاتح زوجته بخصوص الحجرة التي بنتها فوق سطح العمارة للدجاج.. قال إن أنفلونزا الطيور تنتشر هذه الأيام والحكومة تحذر الناس من تربية الطيور في البيوت.

ـ لو عرشنا الحجرة بالخشب وبعض الحجارة واشترينا سريرا قديما ووضعناه فيها ستصبح حجرة مناسبة لتحية..

. بنت مسكينة وليس لها أحد..

. ستكون قريبة منكِ وقتما تحتاجينها..

. وينوبنا ثواب فيها.

زوجته صدمتها فكرة الاستغناء عن دجاجاتها..

صمتت للحظات تحسرت فيها على صحتها التي خارت وشبابها الذي ولى، وابنتها التي لم تعد تسأل عنها أو تزورها إلا في الأعياد والمناسبات.

بعدها هزت رأسها الذي كان يطفح بمسرات بعيدة تفلتت من بين يديها واحدة بعد أخرى، وقالت بصوت مكدود:

. افعل ما تراه صالحا!

تحية لم تصدق أن تمتلك يوما جدرانا أربعة يلتفون حول جسدها ويسترونه، مالت على قدمي الأستاذ رمضان وكادت أن تقبلهما، لكنه منعها.

ظلت تلاحقه بدعوات لا تعرف متى حفظتها وكيف خطرت على بالها، حتى نهرتها الزوجة وأمرتها أن تصعد إلى السطح لتعد العشة لسكنها.

تحية قالت لنفسها إن معها قرشين ستبني بهما دورة مياه بجوار الحجرة إذا لم يعترض أحد من سكان العمارة!

بنتها وبنت إلى جوارها صالة وضعت عليها بابا وأًصبحت شقة صغيرة لها.

أغلقت بابها ورقدت على الأرض فتفتحت أمامها صفحة السماء الواسعة من حجرتها الصغيرة.

حلمت أن تكبر حجرتها ويشاركها فيها ابن الحلال الذي يؤنس وحدتها ويذيب قسوة الصقيع من حولها.

دقت أبواب شقق العمارة بحثا عن عمل إضافي يساعدها على أعباء المعيشة.

لكن شقق العمارة كانت عبارة عن مكاتب لمحامين ومحاسبين، يأتون ويذهبون كل يوم، ويقوم بتنظيفها عمال المكاتب.. أما باقي الشقق فكانت خالية من السكان، تركها أصحابها إلي بيوت واسعة وكبيرة.

وحدها الست فوزية تسكن بشقة بالطابق الأرضي.

كلّمت عم جمعة البقال ليخبر الست فوزية إن احتاجت شيئا فهي موجودة وتحت أمرها فيما تريده، لن تتأخر عن مساعدتها في قضاء حوائجها وتنظيف شقتها.

عم جمعة قال إنها امرأة وحيدة وطلباتها قليلة.. لا يشغلها شيء في الحياة إلا تربية القطط!..

أما القرش فتخرجه من تحت الضرس..

لكنه سيكلمها على كل حال!

أيام وليال طويلة مرت.. ولم تجد تحية ابن الحلال، أو تطلبها فوزية لمساعدتها.

تمر الساعات قاسية عليها وحيدة بين جدران حجرتها، تثير حنينها إلى ساعات العمل التي تقضيها بين الناس في خدمة البيوت.

فكرت أن تقتني قطا يشاركها الحجرة ويكون أنيسا لها، إذ لا أحد يقرع عليها الباب ليكسر عزلتها.

زوجة الأستاذ رمضان قالت إنها مجنونة.. ماذا ستفعل بالقط.. من الأفضل لها أن تربي كتاكيت، حين يكبرون تبيعهم وتسترزق من ورائهم!

لكنها لم تعبأ بكلامها، قرعت باب الست فوزية ربما أعطتها واحدا، أو استعانت بها لمساعدتها في تنظيف شقتها!

فوزية ظلت تردد بفزع من خلف بابها:

. مين؟

. أنا يا ست فوزية

. أنتِ مين؟!

. أنا خدامتك تحية جارتك اللي ساكنة في السطوح!

فوزية أطلت من فتحة الباب الذي ظل مواربا، وقالت:

. خير؟

ـ خير إن شاء الله.. كنت عاوزة قط أربيه، وعم جمعة قال إنك عندك منهم كتير

. قط.. دي قطط سيامي الواحد منها بالشيء الفلاني

لما تحبي تشتري ابقي قوليلي وأنا أقولك باشتريهم منين!

قالت جملتها الأخيرة وأغلقت الباب في وجه تحية التي لم تفهم شيئا مما قالته.

تحية صعدت إلى حجرتها وهي تكلم نفسها.

لم يكذب العم جمعة فيما قاله بحقها، امرأة لا تطاق..

زوجة الأستاذ رمضان برقبتها..

لم يبق إلا القطط ليشتريها الناس بالفلوس!

***

حين شمت الرائحة احتارت في سببها، فتحت باب حمامها لكنها وجدته نظيفا.. اعتادت أن تنظفه في اليوم مرتين، ولا تترك غسيلا يتراكم وتفوح منه رائحة كريهة.

قالت لنفسها ربما فعلها القط تحت السرير، عانت من مشكلة تبوله وتبرزه في أي مكان بالحجرة بعد أن أحضرته من أحد البيوت التي تخدم بها وأراد أصحابه التخلص منه لذلك السبب.

لكن بعد أن عاقبته لمرات لم يعد لتلك الفعلة المشينة.

يتسلل إلى السطوح ويفعلها بعيدا.. هي نفسها احتارت إلى أين يذهب بعد أن لاحظت عدم وجود أثر لمخلفاته بالسطوح كله.

فكرت وقالت: ربما كانت الرائحة لفأر ميت تحت أشيائها.

قلبت الحجرة رأسا على عقب ورشتها بالفنيك، لكنها لم تجد أثرا لشيء.

خفت الرائحة لكنها بعد يومين عادت من جديد.

حين نزلت إلى الأستاذ رمضان ألمحت إليه بشأن الرائحة التي تغزو أنفها.

زوجة الأستاذ رمضان لم ترتح للإيحاء الذي وصلها من كلام تحية..

ترددها عليهم زاد عن الحاجة.. بالكاد لا تتركها إلا عند النوم وهي أصبحت لا تغادر سريرها.

الأستاذ رمضان يعرف ربنا لكنه في النهاية رجل مثل بقية الرجال، أما هي فطول عمرها نظيفة حتى وهي على فراش المرض.

نهرتها وقالت:

. ماذا تقصدين يا بت ؟!

. والله يا ستي ما قصدي حاجة!!

الأستاذ رمضان قال إن معها حق.. كلما خرج إلي البلكونة استشعر رائحة غريبة واخزة لم يكن يستطيع تميزها. لكن كلام تحية دله عليها.

تحية قالت إنها ستقلب الشقة وتغسلها حتى السقف.. ربما كان فأر ميت في مكان ما.

مع الأيام ازداد وخز الرائحة حتى اشتكى كثير من العاملين بمكاتب المحامين والمحاسبين بالعمارة ومن المترددين عليهم.

كل واحد من أصحاب المكاتب أعطى مفتاح شقته لتحية يوما وفي نهاية اليوم أعطاها ما فيه القسمة و النصيب.

لكن الرائحة بقيت كما هي برغم الفنيك الذي رشته بالمكاتب وعلى السلالم.

احتار سكان العمارة ولم يجدوا حلا لتلك الرائحة الغريبة.

الأستاذ رمضان خبط بكفيه على رأسه كمن تذكر شيئا لم يخطر في باله من قبل وقال:

. كيف نسينا الست فوزية؟

تحية لطمت على صدرها وقالت:

. يا لهوي..

. يكون جرى لها حاجة؟!

فوزية التي فاتها قطار الزواج منذ زمان بعيد، كان أخوتها يترددون عليها كل فترة حتى شغلتهم الدنيا ولم يعودوا يزورنها إلا في الأعياد.. باتت تسليتها الوحيدة في تربية القطط.

زوجة الأستاذ رمضان كانت دائما تداعبها وتقول:

. يا أختي ربي حاجة تنفعك.

لكنها كانت تقول: إن القطط مثل البشر..تحس بك وتحنو عليك كما تحنين عليها، لكنها تختلف عن البشر في أنها لا تنهشك بلا سبب.

في المرات القليلة التي دخلت عليها شقتها لم تكن تستطيع أن تضع قدميها على الأرض بسبب عددهم.. كلما تناسلت القطط احتفظت بصغارهم، حتى أصبحت لا تستطيع حصر عددهم.

سألتها: وكيف تنفقين عليهم؟

قالت: إنها تقتسم معاشها معهم.

اعتاد سكان العمارة ألا يلحظوا خروج فوزية من شقتها أو دخولها إليها، حتى ظنوا أن عالمها كله داخل جدران شقتها.

لم يعتد أحد رؤيتها إلا مرة وحيدة في الشهر، عادة ما تكون في بداية كل شهر حين تخرج لقبض معاشها.

أسرعت تحية بصحبة الأستاذ رمضان وواحد أو أكثر من العاملين بالمكاتب التي في العمارة بالهبوط إلي شقتها.

ظلوا يطرقون الباب طويلا دون أن يجيب أحد عليهم.. فتأكدت لديهم الهواجس.

انتفض أحدهم ودفع الباب دفعة قوية ظنا أنه يستطيع فتحه، لكنه ارتد متألما دون فائدة.

أحدهم قال:

. نحتاج إلي أجنة وشاكوش!

وأسرع يبحث عنهما في أحد المحلات القريبة.

غاب للحظات ثم عاد وظل يطرق على الباب طرقات عنيفة حتى انكسر القفل وانفتح الباب.

رائحة عنيفة واخزة منعتهم من الدخول.. الكفوف ارتفعت سريعا على الأنوف لمنع الرائحة من الوصول إليها، لكن دون فائدة. كاد الأستاذ رمضان كاد يتقيأ.

تراجع خطوات وقال: إنه لا يستطيع أن يدخل معهم.. لكن أحدا لم يسمعه.

كانوا قد تغلبوا على وخز الرائحة وسبقوه إلي الداخل.

ضغط أحدهم على زر الكهرباء فصعقت العيون الأجساد المنتفخة والمتعفنة التي تنتشر بكل مكان بالشقة.

سعلات طويلة دوت بين الجنبات وتأفف قاوموه وهم يبحثون عن الست فوزية في كل مكان دون إن يجدوا لها أثرا بالشقة.

أحدهم حمد الله وقال: إنها ليست هنا.

تحية قالت: ولكن هذا معناه أنها لم تبت في شقتها منذ أيام.

أحـدهم هـرع إلى الخـارج واتصـل بـالبوليس الـذي حضـر سـريعا.. عـاين الشـقة وصحب معـه بعـض الأدويـة التي وجدوها إلي جوار سريرها.

تحية قالت أنها أدوية للألزهايمر.

البـوليس اتصـل بأخواتهـا وسـألهم عنهـا، لكنهم لـم يعرفـوا عنها شيئا ولا إلى أين ذهبت؟

تحية من جانبها ظلت لأيام تبحث عنها في أقسام الشرطة والمستشفيات ودور المسنين والشوارع.

تسأل أصحاب المحلات وأمام الجوامع وقت دخول المصلين ووقت خروجهم وبعد صلاة الجمعة.

في أيام الآحاد تذهب إلى الكنائس وتنتظر حتى نهاية القداس وتظل تتفحص في وجوه العجائز وتسأل عنها.

سـألت موظـف البنـك الـذي اعتـادت فوزيـة أن تقـبض معاشها منه، أخبرها أنها لم تقبض معاشها الشهر الماضي.

إخوتها حضروا وطلبوا من تحية تنظيف الشقة..

أغلقوهـا بعـدها وصحبوا معهـم المفـاتيح بعـد أن عرضـوا مبلغا من المال على تحية.. لكنها رفضت.

قالت: إنها لن تأخذ أجرها إلا من الست فوزية حين تعود بالسلامة إلى شقتها.

مرت سنوات على غياب فوزية..

إلا أن تحيـة تحـرص كـل ليلـة أن تطـل مـن فـوق سـطوح عمارتها ترقب الشوارع والشبان الساهرين على الأرصفة والرجال العائـدين منهكـين مـن العمـل والنسـاء السـائحات والشـبان والبنـات العائـدين مـن مواعيـد غراميـة، بحثـا عـن وجـه يشـبه وجهها ربما صادفته بينهم.

بين الحين والآخر تشم تلك الرائحة الواخزة من جديد..
تتحسس قططها التي تكاثرت ولم تعد تستطيع أن تحصي عددها..
تتأكد من نظافتها جيدا وتتعجب من تلك الرائحة الغريبة.

ما لم يحدث بعد!

◙◙◙

منذ متى وطأها ذلك الشعور وأرق حياتها ومنامها ؟!

....

لا تعرف.

ليس الجالس على المكتب المعدني قبالتها بالصموت دائما.

يشاركها ساعات العمل والجدران الوظيفية الأربع.

غالبا ما يأتي متأخرا.

ينفق بعض الوقت مع الزملاء وبين مكاتب الأقسام المختلفة.

حين يجيء تسبقه جلبة تحيات الصباح المجانية على كل من يقابله.

تنصت لتعليقاته وقفشاته التي تسقط عن الزملاء في الحجرات المجاورة جدية الصباح.

يخف صوته على حين غره وتسمع وقع الهمس.

بعدها ترتفع قهقهات الرجال ـ حتى تفزع وحدتها.. تستنتج أن نكاته أخذت مسارا يستدعى السرية بعيدا عن أسماع الموظفات.. يتأكد ظنها حين تنجح إحداهن في استراق السمع.

في طريق عودتهن تروي على أسماعهن المتعطشة ما سمعته، يكاد يغشى عليهن من الضحك والخجل.

حين يفقن ينظرن إليها ويبتسمن!.

حين يصل إلى مكتبه المعدني يبدو آخر بعيد الشبه عن رجل الطرقات.

بالكاد يقول: "صباح الخير" ثم يبقى في انتظار كوب القهوة الذي يحضره عامل البوفيه.

بمجرد وصوله يتحرر قليلا من رابطة عنقه الملازمة له.. ثم يستأذنها في إشعال سيجارة.

عادة ما تكون السيجارة الوحيدة التي يشربها بين جدران مكتبهما.

بين الحين والآخر يترك المكتب ليدخن سيجارة بين الطرقات ومبادلة الآخرين بعض الأحاديث.

باغتته وقالت إن بإمكانه التدخين في المكتب!

لن تتضايق.. زوجها دائم التدخين.. لم تعد حساسية صدرها تقلقها.

لكنه لم يستجب لدعوتها.

قال إن سيجارة واحدة تكفيها.. لا يريد أن يتحمل ذنب قتلها.

اليوم الوحيد الذي قطع فيه عادته يوم طلاقها.

لم تسمع ضجيجه المعتاد بين الطرقات حتى ظنت أنه لم يحضر إلى العمل.

لم يشغل باله بعدد السجائر التي التهمها بين الجدران الوظيفية.. اقتحم سياج الصمت المحيط بالمكتب المعدني وقال:

. الطلاق ليس نهاية العالم.

....

ربما كان بداية

....

من أعطى له الحق في انتهاك ضعفها؟!

في هذه اللحظة لم تكن ترغب في سماع شيء.. جرحها الغائر مدفون في أحشائها ولا ترغب أن يشاركها أحد ترميم جدرانها المتهاوية.

ربما استشعر بنفسه أحاسيسها فعاود الصمت.. قبل انتهاء الدوام

حرص على أن يترك مكتبه لتنعم بخصوصية الحزن.

هل يستوجب لفظ الطلاق أن نقرنه بالحزن؟

لا يعلم.. لكن خيوطا صغيرة من الأسى تتناثر حوله جعلت مثل ذلك التفكير يدور برأسه.

الزميلات أول من لفتن انتباهها إلى ذلك الصموت.

ابتساماتهن.

إشاراتهن.

سؤالهن المتكرر لها.

كلها أشياء لا تخلو من مغزى!

يطوفن بدروب ضعفها، يحاولن تحريك الرماد حتى يلامسن الوجع فيندمل بقسوة.

حين ضاقت بهن ثارت في وجههن.

هل نسيتن إنها متزوجة.

تراجعن سريعا.. لبسن ثوب البراءة وقلن:

.لم نقصد شيئا..

مجرد ثرثرة لقتل الوقت.

إلحاحهن تسرب إلى نفسها.

داهمــت نفســها تفكــر فيــه وفى صــمته الــدائم معهــا.. استغرقت كثيرا في متابعة انهماكه بين الأوراق.. كأن لا وجود لها أو لأنفاسها بين الجدران.

عـادة مـا تصـنع المشـاركة في مكـان واحـد مواضـيع شـتى للحـديث.. لا فـرق بين الرجـال والنسـاء.. وبخاصـة زمالـة العمـل.. لكنه عكس الآخرين!.

حاولت أن تقرأ من بين ملامحه ما تردده الزميلات عن حلو حديثه وخفة دمه حين يمر بمكاتبهن.

إذا كان حقا كما يدعين، فلم هي بالذات لا يسترسل معها في الحديث؟!

أفاقت على عينيه وقد رفعهما عن الأوراق وارتطمتا بعينيها المتصلبتين ناحيته.. تلاقي عيونهما أصابها بالارتباك والخجل.

بما يفسر تحديقها فيه؟

ارتـدت منزويـة داخـل نفسـها.. تعبـث دون وعى بـأي شـيء أمامها.

الملعونات نجحن في إيقاعها بفخهن!.

من بعدها حرصت أن تقابل صمته معها بصمت أكبر.

تعمدت أن تكتفي بهزة من رأسها كرد على تحية الصباح.

بعـد طلاقهـا بأشـهر، الـزميلات عـاودن الحـديث عـن رفيـق الجدران الوظيفية.

هذه المرة إحداهن صرحت بالمغزى.. وضعت أحجار الحزن في طريقهـا لتتعرقـل فيهـا، قالـت إنهـا جميلـة وصـغيرة والحيـاة مازالت أمامها.

وهو مازال أعزب.

قالتها ولم تكن متأكدة.

الأخريات قلن: إن كان متزوجا كنا سنعرف.. لا تخفى علينا مثل تلك الأمور!.

كيف لم تعرف طوال هذه الفترة التي قضياها معا إنه أعزب؟

عندما ثار السؤال في رأسها عادت ولامت نفسها.

ماذا يفيدها أن تعرف أو لا تعرف؟!

حين عادت إلى بيتها ضبطت نفسها أمام المرآة.. وقفت طويلا تتأمل ملامحها.. جعلت خصلات شعرها تتناثر على كتفيها وفوق وجنتيها.

جميلة بما يكفى على الأقل للفت انتباهه إليها.

هذا الصباح تخلصت من غطاء الرأس.. ملامح التأنق بدت زائدة عما اعتادت.. رائحة عطرها خدرت كل من قابلته في طريقها.

سنوات الزواج الثلاث بدت كعقوبة مقيدة للحرية قضتها في حبس انفرادي، خلفت بالروح تجاعيد عميقة لا تود أن تبين.

يجب أن تخفي آثارها التي جفت وتيبست على جسدها.

باستطاعتها أن تحصي الجمل والكلمات التي قالها زوجها طيلة زواجهما.

قضت أيامها بين المقاومة والاستسلام حتى غطى جسدها الملح وتكلست مشاعرها.. لكنها أبدا لم تعرف الطريق إلى السعادة.

كان عليها أن تضع نهاية.

لم تعد عندها القدرة على المواصلة.

الزميلات تأملن تأنقها وشكلها الجديد وتهامسن فيما بينهن.

لم تعرهن انتباها.

الصموت لم يستطع إخفاء انجذابه.

عيناه الزائغتان ظلتا معلقتين تجاه مكتبها.

لـم تلحـظ أنـه خـرج للتـدخين كعادتـه.. باغتتـه ونطقـت بكلمات أشبه بالهمس:

. أحيانا ما نحتاج إلى الحديث مع الآخرين.

لا يعرف من أين استمد صوتها القدرة على تخدير جسده.. أمَّن على كلماتها بابتسامة.

ربما لمحت الكلمات تقف على لسانه لكنها لا تخرج.

تحركت تجاه مكتبه المعدني واتكأت عليه.

رائحة العطر غطته بسحابة من النسيم والخدر.. برودة المكتب المعدني أصابتها برعشة خفيفة.

. ألست جميلة ؟!

ـ....... ؟

....

. صمتك الطويل

كأنك تعيش في جزيرة منعزلة

هنا.. أو في البيت

....

لا أسمع صوتك إلا بين الطرقات ومع الزميلات.

أفاق من خدره.

لم يعرف ما قصدته بكلماتها.

ماذا عليه أن يقول؟!

أسقط عينيه عنها.. مد يده إلى علبة التبغ وحاول الخروج لإشعال سيجارة.

منعتـه بجسـدها فانسـحب عائـدا إلى كرسـيه.. سـحبت السيجارة من بين أصابعه، أخرجت عود ثقاب وأشعلتها.

أسـقطت نظراتهـا عنـه و ارتـدت في خطـوات متخاذلـة إلى مكتبها.

أول مرة يراها تدخن.

....

أخرج سيجارة أخرى وأشعلها.

سحابة كبيرة مـن الـدخان والصـمت خيمـت على سـقف الحجرة الباردة.

عراء

◻◻◻

إظلام تام

يبدو طبيعيا أن تغيب شمس.

أو يحتجب قمر وتتوارى نجوم.

لكن أن تتفق الشمس والقمر والنجوم مع عامل الكهرباء ومولدات الطاقة وكل وسائل الإنارة البدائية والحديثة فمن المؤكد أن هناك شيئا متعمدا!.

لن يكون ذلك لمجرد حرمانك من متابعة مسلسل!

أو برنامج فضائي!

أو مباراة كرة!

أو حتى قراءة كتاب مصادر بأوامر أمنية؟!.

كونك تتخيل نفسك ميتا، ترزح ـ فوقك طبقة طولها متر ونصف وسمكها متر ونصف أو أكثر من القشرة الأرضية.

بحر عميق من التراب الناعم يفقدك الإحساس بالجاذبية والوزن ويتخلل مسامك الصغيرة فتفقد الشعور بالحكة التي تلازمك عند تعرضك للأتربة.

بالطبع لن يمكنك أخذ نفس عميق يساعدك على ترتيب أفكارك أو إعطائك فرصة لتدخين سيجارة.

من الممكن الآن أن يكون فوق سطح القشرة الأرضية مقعد صغير!

شيخ وأبنه يثرثران عن أشياء غبية.

بجوارهما يضحك بسخرية وهو ممسك بعقارب ساعته.

يريانه أو لا يريانه..

لكنه يكسو ملامحها بسخريته.

أو ربما كان هناك أولاد وبنات يضحكون ويلعبون الحجلة والمساكة.. أو طريق إسفلتي سريع وعربات كثيرة وسائق أهوج يدهس شيخا ضريرا.

نجيل أخضر وأزهار زاهية وسط غابة من الأشجار المورقة، وولد وبنت يمارسان الحب بعيدا عن عيون الناس وأفكارهم التقليدية.

أو ربما كان المكان مهجورا وكلب أجرب يبول فوق رأسك.

فرضا لو كنت حقا ميتا

كن حذرا.

الملكان بجوارك عن اليمين وعن الشمال يستعدان لبدء تحقيق فوري عن أفعالك الجسيمة التي تكدر الأمن العام.

يمكنك للتأقلم مع الوضع تشبيههما بشرطيين مكلفين باستجوابك، لذلك سيبدو طبيعيا استخدام بعض الوسائل التقليدية لدفعك إلى الاعتراف، مع ملاحظة أنك داخل كتلة مسمطة من القشرة الأرضية.

صمت ثقيل مفزع يدق رأسك.

من الممكن أن تكون هناك كائنات دقيقة تسمح لها طبيعتها غير البشرية باختراق تلك الكتلة المسمطة والعبث في جسدك المتلاشي.

لا تفكر في مقاومة كتلة مسمطة ترزح فوق جسدك وتحبس خلاياك المتجمدة داخل بحر عميق من التراب الناعم، نقيض الفراغ.

لا تحاول استكشاف الكائنات المغرقة في الظلمة التي تتعايش داخل كتلة مسمطة.

فمع افتراض موتك وتوقف الحواس الخمس عن العمل بشكل دائم يصبح ضربا من المستحيل تلك المحاولات الفاشلة.

فقط عندما تستعيد صورة الموت وهو يلقى بجسده الشائه البشع فوق جسدك في محاولة اغتصاب مصحوب بعنف.

اغتصاب مشفوع بحماية قانونية.

صمت ثقيل مفزع.

وكل الذين يمارسون حياتهم فوق قشرة أرضية طولها متر ونصف وسمكها متر ونصف أو أكثر لا يفكرون بك لحظة.

جسد شائه

وآخر ممسك بعقارب ساعته ويضحك ساخرا!

فقط ذلك الفزع الارتجالي الذي أصاب كائناتك الداخلية كان كفيلا بإحداث ثورة وانفجار بركاني قذف بجسدك وسط مجموعة من الحمم الباردة التعسة لتسقط.

ثورة بيضاء لأن ضحيتها الوحيدة أنت.

الساقط من فوهة بركان.

تسقط ...

كأن تم قذفك من كوكب آخر.

إحساسك بانهيار العالم فوق رأسك.

عالم يتشكل من أجسام معدنية تشبه الكراسي، تتكوم فوق جسدك بعد سقوطها الرهيب.

رغم الظلام التام تتحسس تلك الأجسام المعدنية الباردة.

تحس تلك الكراهية التي تنسجها كائناتها وخيوطها حولك..

تشم رائحة الفراغ بتفاؤل لا مبرر له، ورغم تعثراتك الكثيرة . في

المحتويات الصلبة التي تجهلها. بحثا عن مفتاح كهرباء أو نافذة يتسرب منها شعاع العالم.. بوجه ما شعرت بكراهيتها لك.

لم يراودك شك في نجاتك من مجهول مفزع.

إظلام تام

لكن حين وقعت يداك مصادفة على مفتاح الكهرباء. لاحظ إنه في هذه اللحظة نقضت الشمس اتفاقيتها المبرمة مع عامل الكهرباء ولم يعترض أحد، سطعت في عينيك لمبة النيون بوهجها الذي أصابك بعماء لحظي.

أفقت على هذا الكم الهائل من الكراسي التي تكومت في وسط قاعة عرض مسرحي.

من المؤكد إنك كنت هناك تحت هذا الكم من الكراسي المعدنية وتلك الجدران العالية تلف القاعة.

عالية بصورة جعلتك تعجز عن الوصول إلى منتهاها.

لم يكن هناك غيرك بين كل هذه الأجسام المعدنية الباردة التي ألقاها أحدهم مرة واحدة فوق رأسك.

كان باستطاعتك أخذ نفس عميق قادر على ترتيب أفكارك المربكة والتساؤل عن سبب منطقي لازدراء الكتلة المسمطة لك رغم عدم إبداء أي مقاومة أو امتعاض، وإلقاءك وحيدا في هذا العراء القاحل.

فتاة البحر

◘◘◘

كحوريات الحواديت القديمة تجلس عارية أمام البحر.

عبق ساحر تتقاذفه الأمواج فيفوح بخور الليلة الألف.. تتراقص قباب ومآذن.. تحمل مدن الخيال أسرارها لتقدمها قربانا لعينيها الزرقاوين في صفاء سماء رحيبة.

تسجد الموجات عند قدميها.. تلامس أصابعهما.. ترتعش مرتدة في خجل إلى أعماق البحر البعيدة سعيدة بغناء الخيال.

جنات من فيض الحلم تراقص البحر.

عارية كطبيعة لم تروض.

تدفن ملابسها في أخدود بين رمال شاطئها.. تشوه أقمشتها التي تشبه مساحيق تجميل رخيصة. ثم تركل الرمال بأصابع قدميها فوقها.

جدائل شعرها الذهبي طليقة كجياد تمرح في فضاء ممتد.

جسد برونزي بلون شمس ما لا تشبه شمس الأرض.. شمس عذرية الملامح لا تنطفئ ولا تخبو.

لا تحيد عيناها عن البحر!

تطاردان حلما أبديا أو فكرة بألوان قوس قزح.

....

لا أحد يراها غيري.

من حجرتي التي ظنها العابرون طللا.. من الحجرة التي يتقاذفها الموج بلا هوادة وتسكنها كائنات الوحشة.

البحر

الرمال

الجسد الأنثوي..

والسماء الغاربة.

....

وحدي بين جدران طللي.. رغباتي جنات ومراعي في خيالي.. أستعيد فرشاتي ولوحاتي التي لونها البحر برذاذه الفضي.

كم أنت ماهر أيها البحر بسرياليتك اللا متناهية؟!

كم أنت قاس ووحيد؟!

عند الجدران ــ بين الصخر والقوقع والزبد ــ أبحث عن الحامل المتناثرة بقاياه.. أبحث عن ألوان الزيت التي مزجها البحر بفرشاته وحرمني فرادة اللون.

قوة خفية تشدني إلى حورية البحر.. خيوط من الشوق والحلم تحملني للسباحة بين السحابات.

أمتطي أرجوحة من غمام تطوحني بعيدا عن جحري.. لسعة برد تصفعني عند الخروج.. لسعة تشبه صقيع لحظة الميلاد الأولى.

تجرني الخطوات إليها.

تصطف النجمات حول سماء بهائها.. نور لا نهائي يمتد بين كرسيها والسماء.. تبدو كائنا من عالم آخر.. شمعية الملامح.. فينوس هبطت إلى الأرض دون حرس أو وصيفات.

أدنو منها.

يتردد في الأفق الممتد صدى غناء ملائكي.

(هذا المكان لي وحدي).

لا تحيد عيناها عن البحر.

البحر غاضب، ثائر، ساخط.

يتلون الموج بسواد هائج.. يصفع الصخر والرمل والمحار الراقد بالمنافي البعيدة.

يـزأر قلـب موجـوع ويشـهق شـهقة وداع حـزين.. يرتـد ذلـيلا خانعا يسترضي عينيها القاسيتين.

اسـألها إن كان لفرشـاتي أن تحمـل مـن جمالهـا و صـمتها و بهائها إلى اللوحة؟.

لا صدى لأنفاسها بين هدر الموج.

شـهوة تـنهش ملابسـها المدفونـة بـين الرمـل.. أقمشـتها تكاد تتمرد على اللحد.. يضيق اللحد بي حتى تتفتق أضلعي.

لا أعرف إن كان علي مواصلة المحاولة أم العودة والانزواء بجحري؟!.

الأفكار مثل أشباح تدق رأسي.

شيء بداخلي يتلوى من الألم والفرح الطفولي.

كنـت بحاجـة إلى أن أقشـر أفكارهـا الغائمـة المستعصـية، لكنهـا لـم تكـن تصـغي إلا إلى ذبـذبات متعتهـا الداخليـة، متلـذذة بملامسة الموج الخفيف.

عـادة لا يألفنـا الغربـاء.. يسـكنون إلى وحشـتهم باطمئنـان.. يتكورون على أنفسهم ويختبئون في ركنهم البعيد.

الاستجداء له طعم المرارة.

يغطي الملح حلقي وينشف مائي.

منذ سنوات لـم تتلـون فرشـاتي بالحيـاة، صـقيع المـوج نحل خيوطها.

الصقيع

الوحدة

الصمت

أعداء نبلاء يحملون في جعبتهم الحزن كهدايا لليلة الميلاد.

لن تجد أثرا لأية أشجار.. مجرد رمال تمتد بلا نهاية.. سراب أزلي، لا هو حياة ولا هو موت.

تلك القوارض الشائهة لا تسمح للأخضر أن ينبت بأرضي.. حتى قاع البحر وصلوا إليه.. مارسوا لذتهم في تنسيق العالم وفق هواهم.

....

القوارض اللعينة ما إن رأتكِ فرت مذعورة.

لا صدى لكلماتي إلا صمت قارص.

لعبة الإيهام تخايلني..

سراب أنت أم حقيقة ؟!

أنسق عجزي وأرتد ملتمسا جحري إلى الصقيع.. آلاف الحشرات الخرافية تتجمع ببابي وتنهش جسدي.

يخرج أشرار الحواديت وكائناتهم المرعبة من قماقمهم ويحاصرون مخبئي.. لا يكف الموج عن صفع وحدتي.

بين الأسى والمنى ينسحب الليل الحالك وحيدا ويشرق صباح باهت.

ألواني سقطت فوق رمال عطشى.

لوحتي ثقبها الموج ولعبت الريح بها.

لم أهتم كثيرا.

كان التفكير بها يشغلني عن كل ما حولي.

تطلعت إليها من بين أسلاك نافذتي.. كانت هناك.. وحدها فوق كرسيها.. متدثرة بملابس من الوبر والصوف.. حزينة، قد فارقها البهاء.

لا تحيد بعينيها عن البحر و ملامحها تكتسي بإحساس مزيف بالارتداء.

السيرة السمعية لأُذن مواطن صالح

◘◘◘

في البداية استرعى انتباهه صوت انسكاب كوب ماء في إحدى أذنيه.. عرك أذنيه بكفه وابتسم.

قال لنفسه مذكرا:

- سبحان الله..

- ما أعقد تركيب الإنسان وما أعظم قدرة الخالق!.

وأرجع الأمر لتفاعلات كيميائية داخل الجسد لا يفهمها ولا تستدعي القلق!

ضاجع زوجته واغتسل ونام نوما عميقا.

في الصباح زاحم وعارك للوصول إلى باب الأتوبيس والتعلق بأحد أعمدته الحديدية حتى حمله إلى عمله.

فعل كل ما يتوجب عليه كمواطن صالح.

وقع في دفتر الحضور.. بحث عن مقعد خال وجلس مع زملائه، بادلهم تصفح وقراءة الجرائد القومية وشاركهم بعض النميمة المتداولة على شاشات الفضائيات عن نجوم كرة القدم أو نجوم الفن.

بدا متعاطفا معهم في ظل التهكم الذي لمسه في كلام زملائه.. لم يسترح لمسحة الحقد الطبقي التي بدت في حديثهم.

قال مستنكرا:

- ليس ذنبهم أن أصبحوا مشاهير وأغنياء..

- لتُلصق التهم بهم جزافا.

سحب كرسيه بعيدا واختلى بكوب شاي طلبه أحد المواطنين جاء لينهي أوراقه.

لم يجد أي شبهة في شربه، فهو لن يوقع على ورقة ولن يفعل شيئا.. الرجل تطوع وطلب شايا لكل موظفي المكتب!

مع انتهاء الدوام تكالب مع الجميع على دفتر الانصراف.

انتظر. دون نقمة. الأتوبيس.

لم يتبرم أو يعترض لتأخره، فقط تمنى لو كان معه سيجارة لأشعلها في هذا الوقت.

لكنه عاد وقال لنفسه:

. لا بأس

. هكذا أفضل..

ـ ربما لو أشعلتها وجاء الأتوبيس سأضطر إلى إلقائها أو الصعود بها..

. ساعتها من يضمن أن يتم ضبطي وإلزامي بدفع الغرامة..

. بالتأكيد هكذا أفضل.

ومنى نفسه بسيجارة يحتفظ بها في البيت، يشربها بعد تناول الطعام مع كوب شاي أسود من يد أم محمد زوجته.

❖❖❖

صوت خرير الماء تكرر في أذنيه مرات ومرات لكنه لم يتضايق.

قال لنفسه:

. إنها نعمة يا أبو محمد تستحق أن يحسدك عليها الناس

ـ الناس تدفع من دم قلبها لتحجز في مصيف لتستمتع بالشمس والرمل والبحر..

. من أجل ماذا؟..

. من أجل صوت البحر..

. وها هو صوت البحر يأتيك أنت خاصة من دون البشر إلى سريرك!

وردد شاكرا بعد أن قبل بطن كفه وظهرها:

. الحمد لله.. الحمد لله

. يا لها من نعمة!

لكن حين وجد زوجته تثور لأتفه الأسباب.. تصرخ في وجهه وتقول: إنها لم تعد تطيق أن تكلمه ولا يرد عليها.

انزعج..

فهو لم يعتد إلا احترام زوجته على ما تبذله من جهد ما بين عملها وما بين البيت والأولاد.. تدبيرها لمصاريف البيت حتى تسير بهم سفينة الحياة إلى مرسى لا علم له به.

قال متأسفا:

. والله لم أسمعك يا أم محمد!

لكنها قالت بأسى:

. كلما جاءت سيرة مصاريف المدارس..

لا تسمعني

وكأنك بذلك ستحل المشكلة.

صمت ولم يعلق.

فهي من أصرت على أن يلتحق أولادهما بمدارس خاصة كأبناء زملائهم..

قالت: ربك سيدبرها، لكن مع بداية كل عام تفشل كل الخطط التي يدبرانها لدفع المصاريف مع بداية العام الدراسي.

بعد ملاحقات مدير المدرسة لصغاره وتهديده لهم بالفصل إن لم يسددوا المصروفات يضطر إلى استدانتها من أحد أقربائه أو زملائه ويسددها له على مدار العام.

أما العام الفائت فما زال الدين عالقا برقبته بعد الغلاء الفاحش الذي عاشته الأسواق والمبالغ الباهظة التي يدفعها للدروس الخصوصية.

بعد صمت خيم عليهما قال منكسرا:

. وماله التعليم العام؟!

رأى شفتي زوجته تتحركان لكنه لم يسمع ما قالته.

قال لنفسه: (لعلها تفرج عن نفسها بكلمة، أم محمد ليست معيابة ولا يمكننا أن نحاسب الناس بما يدور في أذهانهم أو يجول في خاطرهم!)



شعر بثقل في أذنه شبه بكتلة أسمنتية صماء صبها أحدهم في أذنه اليسرى ولم يفلح عركه المستمر لها في تحريكها.

حين يحجب أذنه الأخرى بكفه يكاد لا يسمع.

قال لنفسه:

. لا تكن جاحدا وكافرا بنعمة ربك يا رجل

. الناس حولك اختبرهم الله بأمراض الكبد والفشل الكلوي وأنفلونزا الطيور وأنفلونزا الخنازير..

. أمراض لا حصر لها

. حكاية أذنك بالنسبة لها مثل مزحة

صحيح أنه قضى يوما طويلا ومريرا بمستشفى التأمين الصحي أعطاه بعده الطبيب اسم قطرة يضع منها ثلاث نقاط

مرتين في اليوم ووعده أن يتحسن بعدها، ورغم انقضاء أسبوع لم يحدث جديد.

فقط انتهى صوت الخرير من الأذن الأخرى!

إلا أنه يجب أن يحمد ربنا على كل حال.

حين صدمه توك توك وهو يقف في المحطة بانتظار الأتوبيس، وساعده الناس على النهوض، استشاط غضبا.

صرخ في الولد سائق التوك توك قائلا:

. أنت أعمى!

واستدار ليطمئن على نفسه وهل أصابه جرح أو تمزقت ملابسه ولم يلتفت إلى السباب الذي انهال به السائق عليه، ثم شاهد الناس يلتفون حول السائق ويجبرونه على الانصراف بالتوك توك.

بعدها اقترب أحدهم منه وقال:

. لا تهتم يا أستاذ

. فهم أولاد عديمي الأدب

حينها سأله ببلاهة:

. وهل قال شيئا؟

الرجل نظر إليه باحتقار وقال:

. يا خسارة.. الرجال أصبحوا خرتية

لكنه بالطبع لم يسمعه.

***

نصحه أحد الزملاء في العمل بأن يذهب إلى أستاذ في جراحة الأنف والأذن والحنجرة بعد أن بات ملحوظا للجميع حالة الصمم التي يعيشها.

صاح بصوت عال إنه ذهب إلى مستشفى التأمين وأعطوه قطرة لكنها لم تأت بنتيجة..

ربما شعر بعدها بتدهور حالته بشكل أكبر.

صمت مدو تضج به حياته.. حيوان صغير تسلل إلى أذنيه ورقد فيهما ثم مات هناك.

فاتح زوجته بما قاله زملاؤه وأعطاها اسم الطبيب الذي نصحوه بالذهاب إليه.. قالت إنها على كل حال كانت ستبيع السلسلة التي بقيت من مصاغها لتسدد مصاريف الأولاد. وصحبته معها إلى الصاغة ثم إلى الطبيب الكبير.

الطبيب ابتسم وقال إن الأمر لا يستدعي كل القلق الذي يراه في وجهيهما.

قال إن بعض الوسخ ترسب في أذنه وسبب حالة الصمم، وسيحتاج إلى غسيل الأذن وسيعود بعدها إلى أفضل حال.

وأمرهما أن يذهبا إلى الممرضة ليدفعا الحساب.

زوجته قالت أنهما لم يدخلا إلا بعد أن دفعا الكشف بالخارج، لكن الطبيب قال إن الغسيل له حساب آخر بخلاف الكشف.

خرجا من عنده وهما يتبادلان نظرات صامتة.. دفعا 200 جنيه للكشف ثم يقول إن للغسيل حسابا آخر..

لكنهما في النهاية اضطرا للدفع.

وضعت الممرضة القمع في أذنه وسكبت الماء..

انفجرت ريح ثقيلة شمطاء ثم هدر شلال في أذنه حمله بعيدا إلى خيالات نزقه، حيث النساء صغيرات وجميلات وفاتنات والسماء صافية الزرقة والرمال شلالات من الحنو تحت قدميه، والبحر يغسله بماء الحياة فيعود فتيا.

أفاق على صوت الطبيب يستحثه على النهوض.

ابتسامة رضا عريضة ارتسمت على وجهه بعد أن سمع صوته بوضوح، صافحه بامتنان وظل يردد حتى غادر العيادة:

. أنا متشكر

. أنا متشكر

. حقا لقد خلق الله لكل داء دواء



عاش لأيام سعيدا ممتلئا نشوة وفضولا للأصوات التي هاجمت أذنيه.

أصوات غامضة، هي مزيج من ضحكات قويه مغوية جعلته دائم الاستثارة طالبا للفراش مما جعل زوجته تهرب منه وتذكره أنهما لم يعدا صغيرين على ذلك النهم الذي لا يُشبع، وجعل زميلاته في العمل يزجرن نظراته العطشى ويتغامزن فيما بينهن ويضحكن على حاله.

أصوات باعة، كركرة أطفال، خرير مياه لتدفق نهر صغير،حفيف أوراق لأشجار تتمايل، اصطكاك أطباق وملاعق وفناجين قهوة تتكسر.

أو مزيج من نداءات ومزامير وأصوات آلات تنبيه سيارات تتجشأ آلاتها واستغاثات هلعة وفحيح لا ينقطع..

صيحات مرعبة قادمة من أعماق سحيقة تجره إلى عوالم موحشة وتجعل روحه الغضة تنزف ألما.

. لك الحمد يا الله

هكذا قال لنفسه بعد أن استعاد صوت الحياة.



مرت أيام يشتكي فيها من صداع قاتل.. يصحو في أنصاف الليالي ليضع الوسائد واحدة بعد أخرى فوق أذنيه وفوق رأسه، ينهض ليخبط رأسه في الجدار ويعود ليحاول النوم دون فائدة.

بات نزوله إلى الشارع كابوسا.

آلات تنبيه لا تتوقف عن الصفير في أذنيه.. سباب وملاعنة على الرصيف وفي الشارع وأمام واجهة المحلات وداخلها.

قاموسه اللغوي نما بسرعة لم يتوقعها.

مئات الشتائم التي لم يسمع بها من قبل تناقلتها أذناه في عذابهما اليومي.

انطفأت الاستثارة الوامضة في عينيه وحلت مكانها سحابة سوداء كبيرة جعلته يسير متخبطا في الشوارع.

أحد زملائه قال له:

. يا أخي المسألة بسيطة

. ضع قطنتين في أذنيك

. وسترتاح وتريحنا من شكواك المستمرة!

جرب وصفته التي لم تنجح كثيرا في تخفيف الضجيج.

مع الوقت بات يجيب على محدثيه بإجابات لا علاقة لها بأسئلتهم.. يطلب زميله أن ينهي الأوراق التي يطلبها المدير منه، فيرد:

. ابن الكلب

حين يسمع صوت زوجته وهي تنحشر في الأتوبيس وتطلب من الراكب الملاصق بها أن يكف عن مضايقتها والاحتكاك بها.

وحين قالت زوجته أن أمها مريضة وستذهب لرؤيتها والاطمئنان عليها.. كان يسمع جارته وهي تسخر من زوجها الذي

أضاع راتب الشهر على الفياجرا التي لم تأت بنتيجة.. ورأته يضحك دون أن تعرف سببا للضحك.

ثم اعتاد أن يطلق صرخات تحذيرية وهو في العمل أو في البيت بين أولاده من عينة (حاسب . استر يا ستار. خد بالك . لا حول ولا قوة إلا بالله . ابن الكلب . لصوص أبناء لصوص . فسده ومرتشين . ابن ال....).

صيحات تفزع كل من حوله وتجعلهم يقفزون في أماكنهم قفزة خفيفة يتساءلون بعدها:

. فيه حاجة يا أبو محمد

. لأ مفيش!

. فيه حاجة يا بابا

. لأ مفيش

. فيه حاجة يا أستاذ

. لأ مفيش

. فيه حاجه يا أخ

. لأ مفيش

كادر خارج المشهد

ooo

لـم يكـن يعـرف أن قدميـه سـتقودانه إلى تلـك الأصـقاع البـاردة مـع اقتراب الرحلـة مـن نهايتهـا.. هبـت ريـح خريفيـة، فتطايرت حوله أوراق صفراء ذابلة شعر بها تلامس قلبه.

عاد يجر خطواته على أرض باردة ومبتلة.

ترددت في أذنيه كلمات الزملاء فلفحه صقيع، ظل يستمع ويلعق شفتيه دون أن يقول شيئا.. بدوا كأنهم رأوا الموت يلامسه بجناحيه.

" إن كان لابد من البتر.. يحسن إحكام حد السكين دون استخدام أي مخدر"

يده اليمنى خرجت تحمل ساعة الحائط ومصحف كتب بماء الذهب، جمعوا ثمنهما من العاملين والزملاء على وعد أن ينالوا نفس المعاملة والتقدير مستقبلا.

عند الباب لم يستخدم مفتاحه.. بقبضة كفه الشمال دق دقات خفيفة على الشراعة الزجاجية.

كان الباب ثقيلا وهو يدفعه.

زحزحه شيئا فشيئا.

لم ينشغل بتدافع ولديه إلى حضنه أو بالقبلة التي طبعتها ابنته فوق جبينه.

زوجته قالت وهي تنظر نحوه بابتسامة مواسية:

. مبروك يا سعد

لا يعرف لم استعاد في هذه اللحظة مشهد عودته من الجبهة.. وشيش صوت قادم من الذاكرة يطن في أذنيه:

. سعد رجع.. سعد رجع

. ...

. البطل عاد بالسلامة

دوت الزغاريد في الحارة.. رقصت النوافذ والشرفات.. تلقفته أحضان الأهل والأصحاب والجيران.

زجاجات الشربات مرت على الحلوق وروتها بالفرحة.

من بين كل العيون التي احتضنته بحث عن عيني هند..

ما الذي أخرها عنه ؟

لم يجد أباه فوق مقعده أمام الباب ينتظره كعادته!

. أبى..

. أين أبى يا عاصم ؟

خطفه أخوه من بين ذراعيه إلى الراقد في صمت يكابد قهر المرض وحيدا بجوف الدار.. ألقى جسده الذي يفوح برائحة الرمل والبارود وفرحة الانتصار في حضن أبيه ومسح دمعتين ثقيلتين عن عينيه.

....

. الله يرحمك يا أبى.

تهاوى فوق كرسي خيزران يحتل واجهة الصالة.

شعر بقلبه يكبر و يرتجف داخله وهو يتأمل - في صمت - الساعة تحتل مكانها وتتأرجح على مسمار الحائط إلى جوار صورة أبيه.

طوال عمره يسخر من إسراف الناس في استخدام الساعات.

قال لنفسه:

. ليتنا نعرف قيمة الزمن؟!

الوقت هو الشيء الوحيد الذي لا تصل إليه يده.

ابنه أشار ناحية ساعة الحائط وقال بثقة:

. هنا تستطيع أن تراها من أي مكان بالصالة

"لو فكر الزملاء لتراجعوا عن فكرة تقديم راصد الزمن كهدية.. بالأخص عند الخروج إلى المعاش.. قيمة الوقت تتجلى عندما تصبح اللحظة حاسمة في حياة الرجال ومصيرهم "

يشعر بأزيز الماضي يطن في أذنيه بلا هوادة.

من قاع سحيق في الذاكرة تعاود كلمات الرائد جمال رنينها في أذنيه.

(الجندي بعد أداء مهمته لا ينتظر الشكر من أحد.. عليه أن يجلس إلى نفسه.. يفكر ويتأمل ويستعد لمعركة جديدة.. معركة كل لحظة فيها تعني حياته وحياة أمته).

كلمات اعتاد وأصحابه سماعها بعد كل عملية تقوم بها الكتيبة حتى حفظوها.

" ترى أين أنت الآن أيها الرفيق.. وأين الأصحاب البواسل؟! "

. قم لنتغدى.

الأولاد أصروا أن نذبح بطة

احتفالا بخروجك إلى المعاش.

قالت الزوجة كلماتها وربتت على رأسه الأشيب.

نهض من على كرسيه كمن يحمل أثقال الدنيا فوق كتفيه.. حاول أن يتحاشى النظر إلى عيون أولاده وقال:

. كلوا أنتم

لم يقصد أن يلقي بمسحة من حزنه ونشيجه في وجوههم.. كان يريد أن يدفع الكلمات التي تختنق بين شفتيه دون أن يشعر أحد بالغصة التي في قلبه أو يشاركه أحد المرارة التي تعتمل في حلقه.

لكن كلماته خرجت حادة وقوية كدانة مدفع.

.لكن يا بابا..

سحب قدميه بصعوبة وجرهما إلى حجرته وأغلقها عليه.. فتح ضلفتي دولابه ووضع المصحف فوق أوراقه التي يظنها مهمة.

من بينها أطلت برأسها عشرات الأعوام المركونة.

شهادة الميلاد، استمارات النجاح في الابتدائية والإعدادية والبكالوريا، شهادات التقدير وأنواط الشجاعة.

بقايا أسلحة تخص العدو احتفظ بها.

قسيمة زواج وشهادات ميلاد الأولاد.. دفتر قديم قيد فيه أسماء وعناوين الرفاق الذين خاضوا الحرب معه.

تأمل سترة الميدان، الأفرول الذي مسح الزمن لونه رغم كل المحاولات التي بذلها للحفاظ عليه.

. لا شيء يبقى على حاله!

هكذا قال الرائد جمال حين زاره سعد بعد تسريحه من الخدمة.

"في الإجازات المتعاقبة لم يستطع أن يزوره بالمستشفى.. لم يستطع أن يتخيله بغير الصورة التي أعتادها عليه.

يتقدم الكتيبة في الميدان.. يجمع ما تيسر من أرواح الشهداء، يشتم أنفاسهم فتهبه قوة وقدرة على فعل أي شيء.

يصول يجول ولا يكل.

حتى أصابته تلك الدانة اللعينة في إحدى العمليات."

لـم يعـرف بـأي كلمـات سـيتفوه وكيـف سـيحجب الـدمع في مقلتيه حين يراه مقيدا فوق كرسيه المتحرك؟

لكنه وجده كعادته لم يتغير فيه شيء.

نفس الصلابة والبريق الذي لا ينطفئ في عينيه.

كان الأقوى والأكثر تماسكا والمدرك لحقيقة ما تحمله الأيام القادمة في جعبتها.

تعانقا طويلا.

مسـح بأناملـه دمعتـين سـقطتا مـن عيني سـعد وتطلـع مـن خصاص النافذة إلى ظلال الأشجار التي حركتها الريح.

سأله عن أحواله.

سأله عن صاحبة الصورة التي يحتفظ بها في حافظته وهل تزوجا؟

"إذا كـان الرائـد جمـال مـازال يـذكر هنـد، هـل أسـتطيع أن أنساها! "

تعجب أن قائده مازال يتذكر كل صغيرة وكبيرة عن جنوده.

صـمت سـعد صـمتا أقـرب إلى النحيـب.. ربـت الرائـد جمـال على قدميه الملاصقتين لكرسيه المتحرك وقال:

. لا شيء يبقى على حاله

. حتى المشاعر تتبدل

....

نطق سعد بغصة في الروح والقلب:

. وأحيانا الظروف!

"لم يكن بإمكانها الانتظار كل هذه السنين.. الحرب انتظار في انتظار.. لا أحد يعرف تاريخ البداية ولا تاريخ النهاية.. من الذي سيعود ومتى وبأي صورة سيعود "

سأله الرائد جمال عن باقي أفراد الكتيبة وأخبار الأيام التي قضوها بعد إصابته.

سنوات مرت منذ انتهاء الحرب.. كثير من جنود الكتيبة وضباطها زاروه وحكوا عن أيام الحرب وما بعدها.

لكنه شعر بسعادة وهو يعيد على مسامعه التفاصيل الصغيرة.

. وأخبارك يا سعد..

. اشتغلت ؟!

لم ينطق سعد.

ماذا عساه أن يقول ؟

حين رأى الفرحة في عيون الناس ظن أن كل شيء سيتغير.. كثيرون شككوا في قدرتنا بعد الهزيمة، لكننا فعلناها وانتصرنا.

بمرور الشهور والسنوات نسى الناس الحرب ورجالها.

تعلم في الجيش أن العطاء بقدر العمل، لكنه لا يعرف إن كان يعمل أم لا؟!

. أذهب في الصباح لأوقع في دفتر الحضور

. وآخر الشهر أقبض راتبي !

ضحك الرائد جمال حتى بانت أسنانه، ثم للحظات ساد صمت حزين.

....

. تخيل يا سعد عرضوا عليّ العمل بجمعية زراعية!

. أنت يا فندم؟!

ـ قالوا: عليك أن تسلم سلاحك وسيصلك المعاش أول كل شهر

. ...

. حين قلت لهم إن ذلك معناه أن أسلم روحي لهم..

. قالوا أنني أديت وأجبى بشرف!!

. ...

. تأملوا قدميّ المبتورتين وقالوا إن الحرب انتهت!

. لكنني لم أمت بعد؟!

. قالوا يمكنك أن تختار أي عمل تريده

. في جمعية زراعية.. وحدة محلية.. أو مركز شباب!

"دانة مدفع أو طلقة رصاصة أو شظية قنبلة يمكنها أن تبعدك عن الميدان إلى الأبد"

زفر سعد بحرقة وهو يتأمل التراب ينتشر ويغطى أشياءه الحميمة بغلاله ناعمة.

لم يصدق وهو يتأمل نتيجة الحائط أن ثلاثين عاما مرت على الحرب، أيام لم يبق منها إلا رمادها.

لا يعرف لم طاردته صورة أحد رجال المقاومة وهو يستعرض على شاشة التلفزيون الأسلحة التي يحتفظ بها منذ الحرب.

قال: إن الرئيس السادات وقف في مجلس الشعب وقال إننا لن ننسى أبطال المقاومة الشعبية وما فعلوه في السويس وسنكرمهم التكريم اللائق.

بعدها أرسلوا إلينا.

حملنا فرحتنا وزهونا وذهبنا إلى الاحتفال، جلسنا في مقاعدنا خلف الصفوف، نشد على أيدي بعضنا البعض.

لم ينتبه أحد لوجودنا إلا عندما نادوا على أسمائنا وصعدنا إلى خشبة المسرح.

مدت السيدة "جيهان" يدها وأعطتنا شهادات التقدير وشهادات استثمار بعشرة جنيهات وضوى فلاش كاميرات كثيرة فلم نستطع أن نفتح عيوننا.

قال مقدم البرنامج متعجبا:

. عشرة جنيها...ت؟!

....

شج قلبه ألم قديم.

حارب وفقد حبيبته وأباه وبعد كل السنوات التي قضاها في وظيفته أعطوه ساعة حائط!!

" ستون عاما كفيلة بأن تجعلك تجلس في بيتك ترقب عقارب الزمن وتنتظر نهايتك المحتومة"

أغلق ضلفتى الذاكرة.. طفا في داخله حزن ثقيل مباغت.

لم يكن يعرف ماذا ينوي في هذه اللحظات.

شعر بنفاذ الهواء من حجرته.

وهو يعبر الصالة إلى باب الشقة بالكاد لمح أشباح لأولاده وزوجته.

سمع وهو ينزل درجات السلم فئران تصيء وقطط تموء وكلابًا تنبح.

من بعيد شاهد شبحا مهولا يفرش الأرض بظلام كثيف.

في الشوارع لمح وجوها لغرباء كثيرين!.

على المقاهي ألتف الناس حول الفضائيات يتتبعون الأخبار في فلسطين والعراق وسوريا ولبنان.

واجهات المحلات تتلألأ بأنوار ملونة وأسماء غريبة لكنها لا تزيح الظلام الجاثم.

أسرع الخطى دون هدف.

ظلت قدماه تحملاه وتسير حتى وصل إلى النهر.

تلمس سياج الكورنيش وسار معه.

سرى إلى سمعه لحن مألوف.. أصغى السمع وسط ضجيج المارة وصافرات السيارات وأغاني الكاسيت الهابطة التي تنبعث من كل مكان.

واصل السير ناحية اللحن الشجي.

"عبرنا الهزيمة.. يا مصر يا عظيمة"

يملأ الهواء صدره.

زحفت إلى جسده ذكريات جميلة.. شعر بجسده خفيفا، يكاد يطير ويلامس السماء.

عندما وصل إلى الصفوف المزدحمة على ضفة النهر نقر على كتف أحدهم بإصبعه وسأله عن السبب في التفافهم حول النهر؟

أشار له ناحية القوارب التي تقدم استعراضاتها والمسرح المعد للاحتفال ورجال المظلات الذين يقفزون إلى النهر:

. اليوم يحتفلون بذكرى النصر.

تأمل وجه الشاب الذي سأله وملامحه، وجده في عمر ابنه محمود ويشبهه.. نظر إليه بدهشة وقال:

. والله يا ابني حاجة جميلة إنهم فاكرين أبطالنا!

نظر إليه الشاب باستغراب وقال:

. طبعا!!

. طيب يا ابنى تعرف مصطفى هاشم؟

. مصطفى هاشم مين؟

. مصطفى هاشم وغريب محمد على ومحمد عبد ربه وعم غزالي[1]

. ودول يطلعوا مين يا عم
بيغنوا ولا ناس من أيام (أبو الهول)؟!

. ...

. مش مهم يا ابني

. لا تؤاخذني!

. لا تؤاخذني!

ظل لسانه يردد "لا تؤاخذني" كتسبيح بين شفتيه وقدماه تنسحبان من وسط الزحام.

دون أن يشعر أحس بالدوار يلف رأسه.

جمع ما تبقى من رذاذ الصبر المتساقط من السماء في جيوبه وسار حتى وجد مقعدا خاليا على النهر.

تابع السماء التي انقشعت سحاباتها وضوت بها نجمات وحيدة.. نقر بأصابعه على المقعد الذي جلس فوقه ودندن بصوت مسموع رغم الصقيع.

"وعضم ولادنا.. نلمه نلمه
ونعمل منه مدافع"

---

[1] من أبطال المقاومة الشعبية.

ثلاث محطات لقطار وحيد

◻◻◻

حاول فتح عينيه الثقيلتين ليتبصر الوقت.

رفع جفنيه إلى أعلى ـ ناحية ساعة المحطة ـ ومال برأسه ووجهه المنقط ببثور ونمش الشيخوخة ناحية الرصيف.

بتعب أخذ نفسا ضبابيا وأفرغ صفيرا ممتدا بالأذان الملتحفة بالصقيع.

شعر بأعضائه تتداعى والعرق ينز من جسده.. غالبه شوق لبعض القهوة التي تفوح رائحتها بقوة من رصيف المحطة.

....

كل شيء ينزح نحو الرحيل.

السماء أسدلت شعرها الأسود الفاحم واستسلمت لنعاس أثقل أجفانها.. الشمس الواهنة ولت بعيدا واختبأت بعش دفيء لا يعرف طريقه أحد.. أشجار المحطة تعرت من أوراقها و عصافيرها، مستسلمة لريح باردة تهب بين الحين والحين، لا تترك وراءها إلا أوراقا صفراء هشة تعفر الوجوه المتعبة في انتظار محطات لا تنتهي.

أطلق الكهل صفارة أسى طويلة وحادة وتصاعدت أبخرة الديزل إلى السماء في كرنفال رمادي ملتهب.

على الرصيف ومضت أعمدة الإنارة بضوء باهت.

وجوه المسافرين تجمدت من البرد والصقيع والانتظار تحت التندات الرمادية.

امرأة وحيدة جلست بأحد المقاعد المعدنية تدخن الصمت والانتظار مع صوت حليم المتدفق من كاسيت صغير بيديها.

(.. يا شارع الضباب
مشيتك أنا مرة بالعذاب
ومرة بإلهنا
مشيتك وحبي
يسأل على دربي
بفراغ الليل..
والطريق.. وقلبي..)

أصحاب البضائع تراكضوا في كل اتجاه بالمحطة كطيور فزعة.. تزاحموا عند أبواب القاطرات وحولها.

أحدهم ضربه على كتفه ليفتح أبواب قاطراته ويتخلصون من بضائعهم المكدسة بالمحطة منذ أيام.

شعر بألم يلسعه.

أحس بأنه أكثر إجهادا من ذي قبل.

سنوات بعدد سنوات عمره تراكمت بعضها فوق بعض.. تعب تراكم فوق تعب وأسى.. كان بحاجة إلى سنة من النوم ربما استعاد بعض العافية.. ومضة غضب غلفت نظرته الحانقة لكنها جعلت الضوء أكثر سطوعا.

مع انفراجة الأبواب سمعوا صريرا وأنينا..

عابرون يستلقون فوق الكراسي المعدنية التفتوا ناحيته بضيق وعاودوا استرخاءهم.

الآخرون لم يعنهم أنينه في شيء.. جرو صغير انفلت مذعورا من بين العجلات وقفز مبتعدا عن القضبان.. الأيادي تدافعت تزج بالبضائع إلى أماكنها داخل جسد القاطرات المنهك.

بهمّة فاترة يتتبع حمولته تترجل طريقها إلى بطنه.. لا يستطيع منع أمعائه من التقلص.. يجاهد رغبة في تقيؤ كل ما أودعوه أحشاءه.. تنقبض ملامح وجهه الشاحب وترتخي.. تضيق لياليه الساهرة عليه.

شجن المساء كان ثقيلا وكثيفا.. يشعر وكأنه مدفوع إلى مصير مجهول.. قطع ملايين الأميال والأميال بلا إرادة للوصول إلى محطة بعيدة لا يعرف لها عنوانا.. طريق غائم بالضباب والقلق والانتظار.

يفقد الإحساس بطعم الأشياء المحيطة به.. يحرك رأسه المصاب بالشلل الرعاش.. عيناه الغائرتان توحيان بمرض لا يرجى شفاؤه.. يشرد بفكره ويحاول أن يذهب ببصره نحو مكان آخر بعيد ويطلق صفارة مجلجلة طافحة بالعذاب.

القاطرات أصابتها التخمة.

البضائع تتقاتل على احتلال أماكنها داخل القطار.. تقف البضائع الكبيرة في وسط الطريق معترضة كل من يحاول مزاحمتها.. لا تفكر في تغيير مكانها واختيار مقر دائم.. بإمكانها تحقيق رغباتها وقتما تريد !.

البضائع الصغيرة تتصارع، تنثني وتتلوى لتنحشر وسط الزحام وتجد مكانا لها.. بضائع أخرى تسلقت فوق الأجساد لتصعد إلى مكان ظنته آمنا.

بضائع سقطت وتهشمت منذ أول محاولة، وأخرى تعجلت في احتلال أماكن لا تناسبها فظلت حبيسة تحت الأقدام التي دهستها.

في صمت ترقب القاطرات ما يدور داخلها من صراع.. لا تملك إلا انتظار صفارة الديزل الكهل لتبدأ في التحرك.

من بعيد يلمح الديزل الكهل القاطرات النهمة امتلأ جوفها وتثاقلت كعجوز بدينة لا تقوى على الحركة.. تتبع السائق البدين يجر خطواته جرا ناحية بابه الضيق..

يصعد بقدم واحدة درجة السلم ويمسك بالعمود الحديدي بيديه ويجذبه ناحيته ليدفع بجسده إلى مقعد القيادة وينحشر بين مسنديه.

شعر بغثيان مر يصعد إلى حلقه.

على مساحة من القلب تهب نسمات الزمن الجميل.. ليالي عامرة بالأنوار المتلألئة وقصص الحب ولحظات الوداع.. قاطرات فارعة.. محطات بأرصفة رخامية نظيفة وأشجار خضراء يانعة.. قضبان لامعة وكفوف ناعمة برائحة الحناء.

يتذكر شهوة الجسد في الغناء والتلوي على القضبان الممتدة بلا انتهاء ويئن.. كثير من الأيام طمرها الغبار والبعاد!.

يطلق صفارة أخيرة واهنة.

ما زالت القاطرات تفتح فاها للبضائع المتحفزة للحاق بركب المسافرين.

بأسى شرعت تروسه تتحرك.. سعل وتحشرجت كتل الصدأ والتراب الناعم في حلقه.. بصقها وتفل على بقايا المخلفات المتراكمة حول القضبان الخشنة.. الأيادي لا تكف عن حشر

ودس ما تبقى من بضائع أو بقايا حتى امتنعت أبواب القاطرات عن الغلق.

الديزل الكهل استند إلى عكازين خفيين .. فتح أنوار عينيه الملتهبتين على الطريق المجهول.

رياح موحشة هبت على القلب.

باستسلام جر القاطرات الصدئة وسار بخطوات متعبة وسط صرير البضائع الفزعة.

عاصفة

◘◘◘

كان اصطدام العجلات الحديدية بالقضبان عنيفا، يتبعه تطاير شرر في فراغ مظلم.

تتمايل القاطرات وتترجرج محدثة صوتا يشبه دقا لدفوف صوفية تصدح.

أسلمت نفسها للديزل الكهل وسارت خلفه بلا إرادة.. معصوبة العينين، لا تميز بين القضبان و الأرض.

لا تتذكر متى بدأت السفر ولا تعرف موعدا للوصول إلى المحطات.

سماء هجرتها النجوم وغاب عنها القمر.. سكنتها سحابات قاتمة منخفضة.. غمامات سوداء كظيمة قصفت الأرض وفرشتها بعتمة موحشة.

أوغل القطار في سهول ووديان.

على عتبات متاهات الرمال ارتعشت العجلات والقضبان.

عطش قاهر شقق الحلوق.. الديزل الكهل يواصل طريقه في استسلام.. تتلاطم في رأسه الأحلام والكوابيس بين أكوام الظلام.. يئن بصوت مفزع.. يعوي من الألم والخوف وسط صحراء بلا انتهاء.. يستنشق الهواء المبلول بالرمل، فينغز مثل سكاكين حادة في القلب.

من كهوف بعيدة خلف التلال تعوي ريح حبيسة.

السماء تنفخ من أفواهها خيوطا من نار مثل كرابيج تسقط على الأرض.

سمعوا أصوات رهيبة تدوي في السماء.. اصطدام سحابات وتعاركهن، تباعدهن وتداخلهن.

ريح باردة هبت وتساقط مطر.

السائق البدين جمده التعب والبرد.. خطرت على رأسه صورة لسان لهب من قلب موقد يشيع الدفء في أعضائه المتصلبة.. أوقف محركات الديزل الكهل عن الحركة.. احتكت العجلات بالقضبان الصدئة وصرخت بصوت مفزع.. القاطرات ارتجت واهتزت بعنف حتى كادت تفارق قضبانها وتسقط.. ألم قديم عاود أقدام الديزل الكهل.. وقف يستند إلى عكازين غاصا في الرمل وحملق بعينيه المشوشتين في الظلام القاحل، ثم همدت حركته.

هبت ريح صفراء.

حملت الرمال فوق كفوفها وألقتها على وجهه العاري..

تعشش الرمال بالحفر المنتشرة بين تضاريس الوجه المتعب.. ينتفض كمحموم سقط في بحر من الثلج المقشور.

السائق البدين ينحشر بين كرسي القيادة، يتكوم مثل بضاعة متهالكة ويتقازم.. يلف جسده ببطانية قديمة ويرتاح لدفء لامس أعضاءه.. أغمض عينيه الجاحظتين واستسلم لنعاس آمن.

إلى بعيد فرت قطرات المطر.

بحر من الرمال تلاطمت أمواجه وصفعت وجه الديزل الكهل.

بنظرة حانقة يرنو إلى المقعد المتدثر بالصمت ويلعن السائق الذي ألقى به إلى المصير الغامض و ينكفئ في صمته من جديد.

تتحفز البضائع للبحث عن مكان آمن تحسبا لعاصفة منتظرة.

ترقد القاطرات مستسلمة لقرار الانتظار.

....

بغتة هبت العاصفة.

دارت الريح بسرعة كالممسوسة ولفت كل شيء بدوائر ضبابية تتوالد.. خيوط من نار وصقيع لسعت الوجوه والأجساد.. متاهات من الرمال تمرح دون أن يعترضها أحد.. علا اللغط والهمهمة ولمعت العيون ببريق مخيف.

أحلام النجاة تلاطمت مع كوابيس الواقع.

البضائع تطاحنت في ألم.

وجوه مرهقة، يائسة، كظيمة.

مارد تحرر من قمقمه ولم يلجمه أحد.

اخترقت الريح العظام.. هشمتها وعبثت بكل شيء.

يمرح الخوف والعجز والألم.. تجأر البضائع، تصرخ، تستنجد، تصب بركان غضبها على الديزل المريض والقاطرات الصدئة!.

كصفير آلة تنبيه مشروخة يتصاعد شخير السائق البدين ويضيع بين صرخات الفزع.

لم يعد أحد قادرا على المقاومة.. تستسلم الأجساد المستباحة لأكف العاصفة الخشنة.. تلقيها إلى الفراغ والمتاهة ورهانات الانتظار الخاسر.

مصير

○○○

واهنة تجر الريح ذيولها.

يحتل الصمت الأليم الفراغ الرملي.. صمت أشبه بالنحيب يحلق بجناحيه الكسيرين.

في أماكنهم انتظروا واجمين.

مكثوا حينا لا يجرؤون على الخروج من فزعهم.. يتلمسون بقايا الحياة بأجساد شائهة.. كانت ثقوب لكمات الرمال والمسامير غائرة.. على الوجوه ارتسمت مدنا لهزائم الرمل والصدأ.. بين التيه والعذاب أزاحوا ثقل أجفانهم وفتحوا عيونهم المسكونة بالرمل.

الديزل المريض اختمرت في عينيه الدموع.. نضحت بالدم والأسى.. لم يعد لديه القدرة على رؤية هزائم جديدة.

لاك المرارة والرمال بين أضراسه وتداعى إلى الأرض فوق عكازيه الباليين بعد أن سقطت مساميره الطويلة الصدئة.

في الصحراء الممتدة، بضائع كانت ممزقة هناك مبقورة البطون.. خيوط من الدم المتجلط رسمت خرائط لقضبان كسيرة.. خرائط لا تقوى على الصمود أمام فلول الغبار!.

بضائع أخرى تصلبت في أماكنها، تنفض عن أجسادها ما تراكم من أتربة ورمال وجروح.. تتحسس طريقا للنجاة بين أرصفة الموت.

أبيض مرقط برقع سوداء

⦾⦾⦾

تزحف الشمس ببطء من الشارع إلى النافذة.

بعد أن يقف في طابور العيش البلدي للحصول على ما يكفي إفطارهما . هو وزوجته . يتناول طعام الإفطار بلا شهية ثم يتصفح الجريدة مع كوب الشاي.

تغفل عيناه عدة مرات أمام الشاشة.. يفيق على سعلات خفيفة لزوجته التي تعاني آلاما روماتيزمية مبرحة.

تسأل زوجته إن كان سيذهب إلى المقهى.

يتجاهلها ويشير إلى عنكبوت نسج خيوطه بالسقف كما نسج خيوطه على أيامه منذ خروجه إلى التقاعد وزواج ابنهما.

يلتفت ناحيتها فلا يجدها.. يتوقع أنها ذهبت إلى المطبخ لتعد طعام الغداء.. يسمعها تنادي عليه:

. افتح الباب

ينتبه للدقات الخفيفة بالباب.. ينهض بغير حماس ويفتح الباب.

الواقف أمامه يبادره قائلا:

. جواب

. لي أنا؟

يمد يده متعجبا ويتناول المظروف ويغلق الباب خلفه.

لم يعتد منذ تسوية المعاش على استلام أي خطابات.. بعد انتشار المحمول لم تعد للرسائل قيمة إلا إذا كانت تحمل حوالة أو شيكا من جهة حكومية أو إخطارا بقضية لا يعلم عنها شيئا!

يعود إلى جلسته ويتفحص المظروف بين يديه.. لم يجد اسما للمرسل.

لم يتوقع اسما ما، ملفات الذاكرة مليئة بالوجوه والأسماء.. تراكمت بعضها فوق بعض، كثير منها لا يعرف كيف اندس بين أروقتها وتوارى هناك دون رغبة منه؟!

ثم تسربوا من حياته دون أن يشعر.

يتعجب من قدرة العزلة على فرض سياجها حوله.. نتذرع بالعمل والزواج والأولاد والمسؤوليات ونظل كل لحظة نصنع لبنه في لحد يزداد ضيقا بأجسادنا.

حين فتح المظروف وأخرج الدعوة، لمح صورته مع أصحابه تتأرجح على مسمار الحائط بالقمصان البيضاء والبنطلونات الرمادية.

الصورة الأبيض والأسود جعلتهم أشبه بفريق واحد يستعد لخوض منازلة من أجل الحصول على لقب صانعي الغد.

ضحك في نفسه.

الأيام أثبتت أنه الخاسر الأوحد في المنافسات كلها التي خاضها، لم يستطع أن يسدد تسديدة واحدة صحيحة.. كلما ظن أنه اقترب من المرمى تزحزح القائمان بعيدا ووجد نفسه خارج ساحة النزال.

كان يلعب وفق قانون لا وجود له.

الجميع لعبوا وفازوا..

بنــوا العمــائر والبيــوت والشــاليهات.. امتلكــوا المصــانع والشـركات والمزارع التي لا نهاية لحـدودها.. قضـوا الصـيف في شـواطئ لبنـان وأوربـا والشـتاء في الأقصر وأسـوان وبقي وحيـدا ينتظر زحـف الشـمس البطيء إلى نافذته ويغني أغنية قديمـة لا تروق لأحد عن الشرف والمبادئ.

تداعت على رأسه أسئلة غبية لا معنى لها.

كيف عثر على عنوانه.. هل مازال أحدهم يتذكره.. يتذكر أيام الجامعة والخطب الحماسية والأحلام الكبيرة.. مظاهرات 19 و 20 يناير؟!

تعجب حينها كيف أفلت من قبضتهم وكيف سقط في أيديهم بعدها دون ذنب.

قضى شهورا صعبة جعلته يؤمن أنه لن يستطيع أن يغير العالم بمفرده! آخرون بلحاهم الطويلة كانوا معه في الزنزانة تصل الرواتب إلى بيوتهم أول كل شهر، بينما كانت عروسه تستدين لتدبر مصاريف البيت وثمن علاج أمه المريضة.

رائحة أيام قديمة تسري إلى أنفه.

طالع الرسالة بلهفة وشوق إلى ماض شجي.. قرأها حرفا حرفا.. لم تتضمن كلمة تحية واحدة أو إشارة إلى من أرسلها.

(يوم الثلاثاء **8** مساء بالميدان معرض كاريكاتير ضد الفساد).

لم يقل إنه يتمنى حضوره.

كانت دعوة مطبوعة توزع على الكافة دون أن تخصه بشيء.. لا بأس.. على الأقل يعتقد أحدهم أنه مازال حيا.

استعاد مشاعر كاد يفقد حاسة تذوقها، وجد نفسه مدفوعا بقوة خفية ترج كيانه جعلت الحياة تنبض في شرايينه من جديد.

نهض بنشاط لم يعتده وظل يعبث في دولابه.. زوجته التي جلست على السرير ترتق في أغطية الشتاء قالت:

. بتدور على حاجة؟

. القميص الأبيض

. القميص الأبيض..

هو أنت عندك قميص أبيض؟!

لا يتذكر آخر مرة اشترى فيها قميصا أبيض!

منذ سنوات طال عددها لم يعد يرتدي القمصان البيضاء.. كان يتعلل بالغبار والتراب الناعم الذي يهاجمه أينما ذهب.. الرطوبة التي سكنت سنينه وجعلت جسده ينزف سائلا أصفر يداهم كل شيء.

ساعتها كانت الشوارع خالية ونظيفة ولها رائحة بطعم الحنين.. لم تكن السحابات السوداء تجثم على سماواته أو تحجبه عن التحليق.. نسمات الخريف لم تكن تحمل كل ذلك الغبار اللزج.

إن فكر أن يشتري قميصا لن يكون الأبيض أحد خياراته.. الألوان الرمادية باتت تناسب الزحام والغبار والشيب الذي احتل الرأس والروح.

القبح الذي يصادفه أينما ذهب لا يليق بالأبيض!

. لابد أن أحدهم بمكان ما

قال لزوجته وأغلق ضلفتي الدولاب.. بينما عيناه تصعدان فوق خزانة الملابس وتستقران على حقيبة سفر رقدت واستكانت هناك منذ زمن.

شد كرسيا من أمام التسريحة ووضعه إلى جانب خزانة ملابسه وصعد فوقه وجذب الحقيبة فسقطت على الأرض محدثة دويا هائلا.

تراب ناعم كثيف عفر وجهه فسعل وكاد يسقط بشكل مفاجئ، تماسك في اللحظة الأخيرة واستند إلى الجدار حتى استعاد توازنه.

. حاسب

قالت زوجته وهي تهرع نحوه متناسية آلام ركبتيها..

بينما عيناه وقعتا على قميص أبيض مع ملابس قديمة خرجت من بطن الحقيبة تبحث عن أيامها التي ولت.

❖❖❖

قادته قدماه إلى الشارع.

بالكاد يلتصق القميص بجسده الذي ترهل.. لحق بالسيارة المتجهة إلى القاهرة، بينما تترقرق أغنيات ثومه على غير العادة من كاسيت السيارة.

. فيه حاجة عجبتك؟

داهمه سؤال البائع كما داهمه عدم عثوره على أحد من أصحابه أو معارفه في زحام الميدان. أطال الوقوف أمام واجهة العرض دون أن يشعر بالزمن.

الشوارع مازالت قلقة.. ينتظر انهيارا ما يحدث بشكل مفاجئ.

تختلط السيارات بأقدام المارة.. دخان العوادم يدهن الوجوه والأحلام بسحابات رمادية.. أشياء صغيرة تحتضر أمام عينيه دون أن يستطيع أن يفعل شيئا.

لمح عينيّ البائع تتابعان البقع الحمراء وقميصه المهترئ، تراجع خطوات إلى الوراء.

كان يسير مع الجموع الفزعة حتى دفعته الأيدي بعيدا عن زحام الميدان.

انزلقت قدماه، هرولتا خلف أمان مذعور ولاذتا بأحد الشوارع الفرعية.. حينها استعاد انتظام أنفاسه ورتابة خطواته.

تطلع بأسى إلى الأصابع الطويلة التي خمشت قميصه وقلبه.

كي لا يرتبك مضغ كراهية لشيء ما ولم يلتفت إلى بقع الدم الحمراء أو الندوب التي خضبت رأسه أو آلام قدميه.

تذوق طعم الملح والعرق في حلقه ووقعت عيناه عليه فنسي صاحبه الذي لم يجده والمظاهرة والعصي الغليظة.

شده نصاعة البياض.

بدا كأنه ينظر إلى فراغ أسود ويحادث شخصا آخر:

. ربما أعود في وقت لاحق!

لا يعرف لِم رمقه البائع بقرف وتراجع إلى مكانه داخل المحل وأغلق الباب الزجاجي في وجهه.

لم ينشغل به كثيرا.

اقترب من واجهة العرض إمعانا فيه.

تستطيع زوجته ــ ببعض الجهد وبعض المنظفات التي لا يكفون عن الإعلان عنها بكل وقت . إعادة قميصه إلى حالته.

لطالما اشتكت أمه من قمصانه البيضاء!

اشتم رائحة الصابون التي تشبه رائحة الجريد الطري ورأى أمه أمام وابور الجاز تفرك ياقة القميص الأبيض وتضيف

الزهرة الزرقاء إلى طست الغسيل.. تتقافز الرغاوي البيضاء من بين كفيها إلى أرضية الصالة فتهب نسمه رطبه على البيت.

تتطلع الأم بعينيها إلى السقف الأسمنتي المسلح بلونه الرمادي القابض وشقوق الأسمنت التي تفصل بين قوالب الطوب الأحمر والى الأرض التي كساها الاسمنت بطبقه ناعمة جعلت مطاردة التراب الناعم أمرا يسيرا وجعلتها تختال أمام نساء الحارة كلما مرت إحداهن لترى بعينيها حال البيت الذي تبدل من الطوب اللبني والعريشة البوص إلى الطوب الأحمر والسقف الأسمنتي.

هرول أحدهم من جواره وقال:

. إنهم يمشطون الشوارع

ربما لم يشعر به.

كان يرى النسوة يلملمن جلابيبهن التي افترشت الأرضية الأسمنتية ولا ينسين أن يمسحن بكفوفهن التراب الناعم عن مؤخراتهن ويقلن مودعات:

. تعيشي وتعمري.

تتابعهن الأم حتى عتبة الباب بعينيها.

تسمعهن وهن يتهامسن و يضحكن.. تظل تستعيذ وتحوقل وتنادي على أخته الكبرى.. تذكرها لتوقد البخور من شر العين والحسد.

تلتفت ناحيته وتترك قميصه يسقط بين الرغاوي البيضاء وتضرب كفا بأخرى وتقول:

. لا تنفع النظافة معكم

. من لبسة واحدة تصبح ياقة القميص مثل الطين.

تقـول أختـه إنهـا تـراه في الفسـحة يقفـز مـن فـوق سـور المدرسة إلى المدرسة الصناعية ليلعب الكرة هناك.

لم يكن أحد يعرف أنه يذهب إليه.

ينقبـان في مكتبـة والـد صـاحبه ويأخـذ بعـض الكتـب يتصفحها بين الحصص ثم يعيدها إليه.

تغضب الأم وتصيح في وجهه:

.لو شبك القميص بالسور وانقطع..

لن تذهب إلى المدرسة بعدها.

يتركهما تتبادلان الحكايات والملابس من الآنية فوق النار إلى طست الغسيل ويصعد فوق السلم الجيري إلى السطح.

يسـتلقى فـوق عيـدان الحطـب، يتأمـل السـحابات البيضـاء تطاردها السحب الرمادية التي غطت السماء.

لم يكن إلا قميص أبيض واحد اشتراه أبوه مع بداية السنة الجديدة وبعد مرور شهرين أقنعته الأم أن يعطيه قميصا قديما لم يعد يرتديه.

لم يكن قميص أبيه يناسب حجمه.

كان يثني الأساور مرات حتى يظهر كفاه وأصابعه الصغيرة ويتـوارى بعيـدا عـن عيـون أصـحابه وسـخريتهم مـن قميصـه الفضفاض.

تتعمـد الأم أن تترك قميصـه الأبـيض دون غسـيل ليرتـدي قمـيص أبيـه ويكمـل القمـيص العـام الدراسـي دون حاجـة إلى قميص آخر.

فكر الولد في استخدام موسي قديم احتفظ به في حقيبته وصنع شقا طويلا بجانب قميص أبيه الأيسر.

حين غضبت الأم، قال إن مسمار المنضدة علق بالقميص وشده.

ضحك أبوه.

قال إن مسمار المنضدة يصنع قطعا على شكل زاوية قائمة لمثلث.. خفق قلب الولد وتذكر تهديدات أمه بحرمانه من الذهاب إلى المدرسة.

صمت أبوه للحظات ثم قال:

. القميص قديم..

وممكن ينقطع لأي سبب.

كانت كلمات أبيه مثل قشة أخرجته من جب الكذب الضيق.

لبست أمه طرحتها السوداء وأخذت القميص وأعطته لأم صباح الخياطة لتحيكه من جديد.

ربت أبوه على رأسه كأنه يعرف كذبته الصغيرة، أخرج ألبوم الصور الأبيض والأسود ليشاهداها معا.

كان يتطلع إلى القمصان البيضاء وتتراءى أمامه صور عبد الناصر بالجرائد القديمة التي يحتفظ بها والد صاحبه ويقول لنفسه:

. كم كانت ستصبح الصور قاتمة بدون الأبيض.

عادت الأم واستطاعت أم صباح أن تجعل القميص القديم مناسبا لجسده الصغير.. لم يعد يهتم بنظرات الأولاد بالمدرسة أو الأساور التي تحاول دائما ملامسة أنامله.

هربت الصور إلى قاع الذاكرة على صوت أحدهم:

. هاتوه

حين أفاق كان اثنان من أصحاب الملابس السوداء يشهران سلاحيهما في وجهه بينما وقعت عصا ثالثهم فوق ظهره فتهاوى على الأرض.

ظلوا يشدونه من فوق الرصيف إلى الأسمنتي.

انفلت من قميصه وسقط على الأرض.

انقض ثلاثتهم عليه وحملوه إلى العربة التي تنتظر في الجانب الآخر من الطريق وألقوه داخلها.

سقط بين الأجساد التي تتخبط كطيور عمياء داخل قفص حديدي، بالكاد لمح عينين تبتسمان.

عينان زرقاوان صافيتان رغم الأجفان المنتفخة واحمرار أهدابها.

سمعه يهمس:

. لقد حذرتك يا صديقي

داهمته ابتسامه مره.

يبحث لقدمه عن مكان داخل العربة المكتظة، رآه يمد إليه يديه، كفه تفوح منها رائحة الألم.

زاحم الأجساد في وقفتها المنهكة وقال بأسى:

. على الأقل تقابلنا من جديد!

من خلف أسلاك العربة كانت عيناه تتسللان إلى الشارع وتبحثان عن قميص أبيض بين الأقدام الثقيلة التي احتلت الطريق الخالي، بينما كانت السحب معلقة كخرق بالية ملطخة بالدم.

فوبيا الجغرافيا

◘◘◘

تلاشت المسافة ما بين الواقع والخيال حين توقف الباص الذي حملني من المطار وأشار المرافق لي بالنزول، ورأيتني أقف أمام واجهة منزل يشبه كثيرا المنزل الذي اخترته سكنا لبطل قصتي.

كان مرافقي عربيا لكنني بالكاد كنت أستطيع التقاط بعض الكلمات من بين شفتيه اللتين اعتادتا المزج ما بين أكثر من لغة.

مسحت بقايا ابتسامة علقت بوجهي حين وجدتني أمام المنزل ذاته، ولم يصطحبني إلى أحد فنادق البلدة كما اعتدت في إقامتي القصيرة بالبلاد التي زرتها، وقلت ردا على سؤال ظننته سأله: لا شيء!

سبقني إلى باب المنزل وفتحه بينما حملت حقيبتي ولحقت به.. كان يثرثر بكلمات كثيرة وهو يتجول بي في أرجاء المنزل.

استوقفته وقلت:

. ألا تجيد العربية؟

نظر إليّ باستنكار وقال:

. قليلا..

كنت أعرف أن مرافق بطل قصتي كان حانقا عليه حين سأله السؤال ذاته، فهو سؤال يشعر معه بالمهانة والتشكيك في هويته العربية، رغم معرفة الكافة أن كثيرين من أهل بلده لغتهم

الأولى الفرنسية خاصة بالنسبة للمتعلمين الذين سافروا مبكرا إلى أوربا.. أما من بقوا في بلادهم فلهجاتهم المحلية خليط من لغات القبائل والمستعمرين والفاتحين العرب.

قاطعت شرودي وصمته وقلت:

. لا تتعب نفسك معي

. سأتعرف على المنزل بنفسي

. المهم أين أجد الحمام؟!

أشار إلى ممر معتم بالجهة المقابلة وقال:

. هناك..

ثم أعطاني بطاقة بها أرقام هواتف لاستخدامها وقت الحاجة، خمنت أنها ستساعدني في طلب الطعام، أو الاتصال بالمؤسسة!

قبل أن يغادرني قال إن الباص سيأتي في المساء ليأخذني إلى الحفل!

❖❖❖

المنزل كان يشبه الكثير من بيوتنا، له طابع شرقي، ولم يكن ذلك مستغربا في بلاد سكنها العرب لقرون طويلة.

أخذت حماما ساخنا لأستعيد نشاطي ووقفت في النافذة أتطلع إلى الأشجار الخضراء النضرة وأزهارها الملونة بألوان قوس قزح التي ملأت الشارع.

كان أمامي بضع ساعات على موعد الباص الذي سيأتيني، فكرت أن أرتدي ملابسي وأخرج لأتعرف على المكان، طافت برأسي صورة الفتيات الشقراوات فأصابني خدر وتحمست للفكرة رغم فوبيا الجغرافيا التي تصيبني وتجعلني لا أحفظ الأماكن التي أرتادها جيدا، ساعتها كيف سأعود إلى سكني؟.. لا

أحمل هما إذا كنت برفقة أحدهم، أو في بلد عربي أستطيع الاستفسار دون عائق اللغة، أما هنا فالكلمات الإنجليزية التي عرفتها بحكم دراستي تضيع مني في سرعة حديثهم ولن تسعفني اللغة!

نحيت هواجسي جانبا وقررت المضي قدما في فكرتي..

وأنا أرتدي ملابسي وخزني الجوع.. كانت عادة تلازمني في سفرياتي عكس حالي في البيت، حيث أصبح زاهدا في الطعام!

كنت لم أتناول شيئا منذ أكلت بالطائرة، وفكرت أنني ربما وجدت شيئا بالثلاجة..

ذهبت إلى المطبخ ووجدتهم وضعوا بثلاجتي الوجبات التي تكفي مدة إقامتي كاملة.. لا يحتاج الأمر مني إلا بعض الجهد اليسير في إعدادها!

كان للمطبخ جانب زجاجي يكشف مطبخ المنزل المقابل ويكشف الشارع الفاصل بينهما وأشجاره النضرة.

صمت موحش شعرت معه بالوحدة والعطش الشديدين، تناولت عصيرا وشربته.. وقع نظري ناحية المطبخ المقابل فوجدت شقراء ترتدي قميصا أرجوانيا فضفاضا يكشف ما فوق ركبتيها تدخل إلى المطبخ وتفتح ثلاجتها.

سرت سخونة في جسدي وظل نظري عالقا ناحيتها حتى وقع نظرها ناحيتي.. ابتسمتُ وربما أشرت لها بكفي محييا، لكنها انصرفت عني وتركت مطبخها!

أسرعت مغادرا مطبخي إلى الردهة الواسعة، لمحتها تمر من ردهتها وضبطها تلتفت ناحية شرفتي في التفاتة عابرة.

ازداد حماسي وسرت في الطريق المفترض الذي قادني إلى حجرة مكتب صغيرة، فتحت شرفتها، لكنها كانت تطل على شارع جانبي صغير لم يكن مواجها لمنزل الشقراء!

أصبت بخيبة أمل، لكنني كنت صرفت النظر عن فكرة الخروج تحاشيا لفكرة فوبيا جغرافيا الشوارع.. أخرجت سيجارة وأشعلتها وتفحصت المكتبة التي تراصت بعدد من المجلدات الأجنبية.. وقع نظري على كتاب أو أكثر باللغة العربية عن الآثار الأندلسية في أسبانيا والبرتغال!

منيت نفسي بتصفحهم حين يفترس الليل المدينة وأبقى وحيدا في الفراش، وخطر في بالي أن أذكر مرافقي أن يصطحبني إلى قصر الحمراء وزيارة معالم قرطبة، وأسرعت مغادرا الحجرة باحثا عنها في حجرة أخرى.



من حجرة إلى أخرى طفت بلا جدوى دون أن أحصل على أثر لها، شعرت باليأس وبالأسى على الفرصة التي أضعتها بالتعرف على المدينة والتسكع في شوارعها بين العديد من الشقراوات.. لكنني عدت وقلت لنفسي: لم تضع الفرصة بعد، وأسرعت إلى مغادرة المنزل إلى الشارع.

كان الشارع نظيفا وله رائحة ربيعية محملة بأريج الأزهار.. صرت ببطء متفحصا واجهة العمائر القصيرة والبيوت التي ارتاحت في حضن الأشجار، متأملا وجوه الناس القليلين الذين قابلوني بالطريق.

لا أعرف لِمَ لمْ أشعر بغربة مع تلك الوجوه.. كانت تشبه إلى حد بعيد كثيرا من الوجوه التي أراها في بلادي، فقط ينقصها

بعض الغضب الذي يقطب جباه البعض عندنا بسبب ضيق المعيشة وصعوبة الأحوال والرطوبة الخانقة والغبار.

خطر ببالي أن يكون أحد أجدادي جدا مشتركا لأحد هؤلاء فابتسمت، وعادت صورة جارتي الشقراء تخايلني من جديد!

عندها خبطت بكفي فوق جبهتي وقلت لنفسي متعجبا: هل يمكن للواقع أن يطابق الخيال مستعيدا صورة بطل قصتي حين اخترت له أن يرى جارته الشقراء وهي تستحم في حمام السباحة من غرفة نومه؟!..

حينها هرولت عائدا إلى المنزل، ولم يخطر ببالي أن فوبيا الجغرافيا اللعينة ستفعل فعلتها معي (وربما رغباتي الدفينة التي أجهلها) وأجدني داخل منزل آخر لم أكن أتخيل أنه منزلها إلا عندما وجدتني مبهوتا أمام حمام السباحة حين رأيتها تسبح على ظهرها وتتأمل السماء الصافية!

طافت برأسي خيالات استعرتها من قراءاتي في الليالي الألف ومشاهدة الأفلام الأجنبية وطافت برأسي أفكار مجنونة عن جرأتها التي جعلتها تقتحم سكني وتبدد المسافة التي كنت أحتاج سنين لأقطعها.. تقمصت دور دونجوان وحاولت تنشيط ما أعرف من كلمات بالإنجليزية وقلت برقة ساذجة:

- Hello

لكنها أثارت موجات غاضبة بتدافع يديها المرمريتين للماء وظلت تتفوه بكلمات لم أفهمها حتى خرجت من حمام السباحة وهي تصرخ وتكرر في:

- Mirr a otro lado

ولم أعِ شيئا مما تقول حتى ارتدت روبها وهرولت ناحيتي وهي تزيحني بعيدا وتصيح فيّ:

¡Fuera de mi casa!

لـم أفهـم شـيئا، وظللـت أتعثر في الكلمـات الأجنبيـة التي أستدعيها وفي خطواتي المتراجعة للخلف، حتى استجمعت نفسي وقلت:

- it is my home

افتعلت ضحكة كبيرة ساخرة وظلت تردد بعصبية:

- Demente
- Savages
- Bárbaro
- Crazy y brutal

كنـت مرتبكا، أشـعر بالتضـاؤل والخـزي وأنـا أفـر مـن أمامهـا وأقـف في الشـارع أبحـث عـن المنزل الـذي أسـكن فيـه، ولـم أقـم بحسـبة بسـيطة تسـاعدني في الوصـول إلى سـكني الـذي يقطـن منزل جارتي الشقراء في ظهره.

ظللـت أتسـكع بيـن الشـارعين، أخشـى الاقتراب مـن أبـواب المنـازل التي تتشـابه حتى لمحـت البـاص الـذي جـاء في الموعـد المحدد ليحملني إلى حفل استلام الجائزة.

حينها تمنيت في نفسي لو كان عنوان قصتي الفائزة.

- It is your home, my friend.

الكاتب

أحمد طوسون

قاص وروائي مصري

صدر له

- في مجال الرواية

- مراسم عزاء العائلة دار شريف للنشر والتوزيع 2006

- في مجال القصة القصيرة :

- القصص الفائزة بجائزة جنوب المتوسط دار ميريت الإيطالية 1997
- مجرد بيت قديم على نفقة الكاتب 1999
- شتاء قارس إبداعات – هيئة قصور الثقافة 2000
- عندما لا تموء القطط هيئة قصور الثقافة 2003

- في مجال أدب الأطفال

- حكاية خير البلاد قطر الندى – هيئة قصور الثقافة 2003
- حكاية صاحب الغزلان دائرة الثقافة والإعلام – حكومة الشارقة 2006
- دجاجات زينب دار شريف للنشر والتوزيع 2009
- أحلام السيد كتاب دار روائع مجدلاوي للنشر بالأردن 2010

الجوائز

في مجال الرواية

◘ جائزة المسابقة المركزية للهيئة العامة لقصور الثقافة في الرواية للعام 2001 / 2002 .

في مجال القصة القصيرة

◘ جائزة القصة لدول جنوب البحر الأبيض المتوسط التي نظمها إقليم لجوريا الإيطالي عام 1996 / 1997 .

◘جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة في القصة القصيرة عام 1997.

◘جائزة الانتفاضة في الإبداع التي نظمتها جريدة الأسبوع القاهرية عام 2000 .

◘ جائزة أدب الحرب في القصة القصيرة التي نظمتها جريدة أخبار الأدب بالتعاون مع مجلة النصر والشئون المعنوية بالقوات المسلحة عام 1996 .

◘ جائزة العقاد الأدبية في القصة بمناسبة مئوية العقاد للعام 1997 .

◘ جائزة دار نعمان للثقافة للعام 2006 .

◘ جائزة إذاعة BBC ومجلة العربي 2009.